آلان مابانكو

رواية

مُذَكّرَاتُ شَيْهَم

ترجمة: أبو بكر العيادي





مذكرات شيهم

رواية

تأليف: **آلان مابانكو**

ترجمة: **أبو بكر العيادي**



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٥

مابانكو، آلان.

مذكرات شيهم: رواية/ تأليف: آلان مابانكو:

ترجمة: أبو بكر العيادى. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.

١٦٠ص؛ ٢٣ سم.

تدمك ٢ ٠٢١٢ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الإفريقية.

أ ـ العيادى، أبو بكر. (مترجم)

ب ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٩٢٩/ ٢٠١٥

I. S. B. N 978 - 977- 91 - 0212 - 2

ديوى ٨٩٢,٣

• الكتاب: مذكرات شيهم

Memoires de Porc - épic

• تأليف: آلان مابانكو.

Alain Mabanckou

• ترجمة: أبو بكر العيادي

• الطبعة الأولى 2014.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

إهداء الكاتب

أهدي هذه الصفحات إلى صديقي وحاميّ الحلزون العنيد،

وإلى روّاد حانة الدّين سافر

وإلى أمّي بولين كنجي

الّتي أخذت عنها هذه الحكاية

(عدا بعض الكذبات)

كيف وصلت على عجل حتّى منبت جذعك

لست سوى حيوان إذن، حيوان تافه، قد يقول البشر عنّى "بهيمة متوحّشة" وكأنّهم لا يحصون من هم أكثر بهيميّة وأكثر وحشيّة منّا فى جنسهم، فما أنا فى نظرهم سوى شيهم، وما داموا لا يثقون إلاّ فى ما يرونه، فقد يستخلصون ألاّ شىء يميّزنى، وأنّى أنتسب إلى فصيلة ثدييات مجهّزة بأشواك طويلة، قد يضيفون أنّى لا أستطيع أن أعدو بسرعة كلب صيد، وأن الكسل يُلزمنى بألاّ أعيش بعيدًا عن المكان الذى أقتات فيه .

فى الحقيقة، ليس للبشر ما أحسدهم عليه، أنا أسخر من ذكائهم المزعوم، فأنا نفسى كنت لمدّة طويلة "مثيل"(*) الرّجل الذّى يدعى كيباندى والّذى لقى حتفه أوّل أمس، كنت ألبد فى أغلب الوقت غير بعيد عن القرية، ولا ألتحق بذلك الرّجل إلاّ فى وقت متأخّر من اللّيل، حينما أدعى إلى تنفيذ المهمّات المحدّدة الّتى يكلّفنى بها، أنا واع بالعقوبات الّتى كان يمكن أن يسلّطها علىّ لو يسمعنى، حينما كان حيًا، أعترف كما أفعل الآن فى أريحيّة قد

(*) Le double تعبير خاص بالفرنسية Gallicisme تقابله فى لغتنا مفردات مثل مزدوج وصنو وقرين وبديل ومماثل، وقد فضلنا عبارة مثيل لاقترابها من المعنى المقصود أكثر من سواها. (المترجم).

يفسّرها بنكران الجميل لأنه، دون ادّعاء ظاهر، كان يتصوّر طوال حياته أنّى مدين له بشىء ما، وأنّى لم أكن سوى ممثّل ثانوىّ تافه يمكن تقرير مصيره كما يحلو له، فى الواقع، ودون أن أسحب الغطاء إلىّ، يمكن أن أقول عنه الشّىء نفسه، فلولاى ما كان أكثر من مجرّد بقلة، وحياته البشرية ما كانت لتساوى حتّى ثلاث قطرات من بول الشّيهم العجوز الّذى كان يحكمنا فى الفترة الّتى كنت لا أزال خلالها أنتمى إلى عالم الحيوان

عمرى الآن اثنتان وأربعون سنة، ما زلت أحسّ أنّى فى عنفوان الشباب، ولو كنت شيهمًا مثل أولئك الذين يهيمون فى حقول القرية لما حظيت بعمر طويل كهذا، لأنّ المخاض، فى ما يخصّنا نحن شياهم هذه الجهة، يدوم من ثلاثة وتسعين إلى أربعة وتسعين يومًا، ولأنّنا يمكن أن نعيش فى أحسن الحالات حتّى سنّ الواحدة والعشرين إذا كنّا فى وضع اعتقال، ولكن ما جدوى أن نقضى الحياة كالعبيد داخل معتقل، وما جدوى أن نتخيّل الحرّيّة خلف أسلاك شائكة، هه، أعرف أن بعض الحيوانات الكسولة قد تجد فى ذلك راحتها، وقد يبلغ بها الأمر أن تنسى أنّ حلاوة العسل لا تعوّض أبدًا عن وخز النّحلة، أنا أفضّل المغامرة فى الأدغال على الأقفاص التى يُحتجز فيها كثير من أقرانى كى ينتهوا فى يوم ما إلى كباب لحم فى قدور الآدميين، صحيح أنى حظيت بتحطيم الرقم القياسىّ لفصيلتى، وأنّ لى ما لسيّدى من سنوات عمره، لا أزعم أن مماثلته كانت وظيفة عاطلة، كانت وظيفة حقيقيّة، وحواسّى كانت مستنهضة على الدوام، كنت أطيعه بلا تذمّر وإن كنت فى المهمّات الأخيرة قد بدأت أراجع نفسى، وأقول فى سرّى إنّنا نحفر قبرنا بأيدينا، ورغم ذلك كان علىّ أن أطيعه، أن أتحمّل وضعى بوصفى مثيلا كسلحفاة تحتمل درقتها، كنت عين سيّدى

الثالثة، منخره الثالث، أذنه الثالثة، وهذا معناه أنّ ما لا يراه، وما لا يشمّه، وما لا يسمعه، كنت أنقله إليه بواسطة الرّؤى، وإذا لم يُجب عن رسائلى، كنت أظهر أمامه حينما يكون رجال سيكيبَمْبى ونساؤها قاصدين الحقول

لم أحضر ولادة كيباندى مثل أولئك المُثُل الذين يولدون فى نفس اليوم الذى يولد فيه الطفل الذى سوف يشهدون نموّه، أولئك هم مُثُل مسالمون، لا يعرضون أنفسهم أمام سيّدهم، ولا يتدخّلون إلا فى حالات معيّنة، حينما يمرض المطّلع على سرّهم مثلا، أو حينما يكون ضحيّة نحس، المُثُل المسالمون يحيون حياة رتيبة، ولا أدرى كيف يحتملون عيشة كهذه، هم خاملون، بطيئون، لا همّ لهم سوى الفرار عند أوّل حسّ، هذا السّلوك الغبىّ يدفعهم حتّى إلى الحذر من أطيافهم، سمعت من يقول إنّ معظمهم خرس، عمى، ولكن لا أحد يستطيع أن يغافل تيقّظهم بسبب حاسّة شمّهم التى لا تخطئ، لنقل إنّهم يحمون الإنسان، يدلّونه، يرسمون خطوط وجوده، يموتون مثلنا فى نفس اليوم الذى يموت فيه سيّدهم، مثل هذه القدرة يضمن الجدّ انتقالها ما إن يولد الإنسان، حيث يستولى العجوز على الرّضيع بعد استشارة والديه، ويختفى به وراء الكوخ، فيحدّثه، يتفل عليه، يلحسه، يخضّه، يداعبه، يقذف به فى الفضاء، يتلقّفه فيما يغادر روح المثيل المسالم جسد العجوز ليندس فى جسد الكائن الصّغير، فيوقف المطّلع على السّرّ نفسَه على فعل الخير، ويتميّز بكرمه المفرط، يغدق على الْمُقعَدين والأكِفّاء والمتسوّلين ويحترم أمثاله، يدرس النباتات لعلاج المرضى ويحرص على نقل مواهبه إلى الأجيال القادمة منذ ظهور الشّعرات الرّمادية الأولى على قمّة رأسه، إنّها حياة أكثر من رتيبة لكى لا نقول مملّة، لن يكون لى ما أرويه لك اليوم لو كنت واحداً من أولئك المُثُل المسالمين بلا مشاكل خلوًا من أىّ خاصيّة استثنائية .

أنا أنتمى بالأحرى إلى مجموعة **المثُل المضرّين**، نحن أكثر المثُل هياجا، وأشدّهم خطرًا، وأقلّهم انتشارًا أيضًا، ونقل مثيل من هذا القبيل كما تتوقّع هو أكثر تعقيدًا، وأكثر حصرًا، ويتمّ خلال العام العاشر من عمر الصّبىّ، بشرط التّوصّل إلى تجريعة الشّراب المسارّى المسمّى **مايَمْفومْبى**، يشربه المطّلع على السرّ بانتظام حتّى تنتابه حالة السّكر التى تتيح له أن يزدوج، أن يحرّر **هو نفسه الآخر**، مستنسَخًا شرهًا لا يكفّ عن الجرى والرّكض وتخطّى الأودية والتخفّى بين أوراق الشّجر، هذا إن لم يكن يغطّ داخل كوخ المطّلع على السّرّ، وأنا كنت أجد نفسى بين هذين الكائنين، ليس باعتبارى متفرّجا، فلولاى قد يهلك هو نفسه الآخر لسيّدى بسبب عدم إشباع نهمه، أستطيع أن أبوح لك بأنّ أهالى الأطفال الذين ينقل إليهم مثيل مسالم هم على علم بالمسارّة ويشجّعون عليها، وليس الشّأن كذلك عند نقل مثيل مضرّ، حيث تتمّ العمليّة رغم أنف الطّفل، تجرى فى غفلة من الأم والإخوة والأخوات، البشر الذين نتقمّصهم حينئذ ونصبح تجسّدهم الحيوانىّ لا يدعون الأحاسيس تسكنهم كالشّفقة والرأفة والنّدم والرّحمة، فهم يتداولون عليها بيسر فى اللّيل، وحينما تنتهى عملية النقل، يتوجّب على المثيل المضرّ أن يغادر عالم الحيوان ليحيا غير بعيد عن المطّلع على السّرّ، ويؤدّى المهمّات التى يكلّفه بها بغير اعتراض، فمنذ متى نقَض مثيل مضرّ قول إنسان يدين له بوجوده، هه، ذلك أمر لم يحدث إطلاقًا حسب أقصى ما تعيه ذاكرة شيهم مثلى، وليست الفيلة وحدها هى التى تملك ذاكرة لا تخطئ، وهذا أيضًا حكم من الأحكام المسبّقة للجنس البشرىّ.

قبل أن يجازف سيّدى باللّعب بالنّار، كنت أستعذب فى سعادة بضعةَ أشهر من الرّاحة، وأغتنمها فرصة لتأمّل الحياة التى تمضى من حولى، الهواء النّقىّ يملأ رئتَىّ، والغبطة تجمح بى فأجرى، أجرى دائمًا، وأتوقّف فى قمّة هضبة لأسرّح نظرى فى اهتياج العُطُم(*)، كنت أهوى ملاحظة الحيوانات الأخرى، معيشهم اليومىّ، أى أنّى أعيد ربط الصّلة مع الأدغال، كان يمكن أن أختفى، أن أقطع عن سيّدى أخبارى، أتأمّل الشّمس وهى تميل إلى الغروب، ثمّ أغمض عينىّ لأسمع الجداجد قبل أن يوقظنى فى اليوم الموالى صرير الزّيز، خلال فترات الرّاحة تلك، فترات الهدنة، كنت أقضم كثيرا، وكلّما أكلت ازددت جوعا، بل إنّى لا أذكر عدد حقول العسقل التى تردّدت عليها لسوء حظّ قرويّى سيكيبَمْبى الذين كانوا يتّهمون خطأ مِسخًا نصفه آدمىّ ونصفه الآخر حيوان معدته كانت أشدّ عمقا من بئر جهالتهم، ثمّ أذهب منذ ساعات الفجر الأولى أرقب البطّ البرّىّ يبطبط فى مياه الوادى، وأجنحته المبرقشة تنعكس على الموج، كنت مسرورًا برؤيته يتبختر على سطح الماء دون أن يغرق،

(*) جماعة الحيوانات. (المترجم).

ويطير نحو فضاءات أخرى ما إن يعلن أحدها نهاية الفسحة أو يقتحم المكانَ صيّاد، آخرُ ساعات الصباح تفتح استعراضَ حمير الزّرد والظّباء والخنازير البرّيّة ثمّ الأسود التى تتنقّل فى مجموعات على طول ذلك الوادى يتقدّمها الصّغار، فيما كبارها تزأر لأتفه علّة، عالم الحيوان هذا لا تتقاطع طرقه كأنّ ثَمّة تقسيمًا طبيعيًا للزّمن، فبعد ذلك بمدّة، حينما تبلغ الشّمس السّمت، تبدأ جيوش القردة تظهر، كنت أشهد العراكَ الذى كان ينشب بين الذكور، من أجل نفوذ أو أنثى، وأنظر إليه كوسيلة للتسلية، حركاتها تذكّرنى بحركات الآدميّين، خصوصًا حينما تتسلّى تلك الحيوانات الشّبيهة بالإنسان بِخَنَب أنوفها المتيّبس، أو تهرش مواضعها التّناسليّة ثمّ تشمّ أصابعها قبل أن تعبّر عن اشمئزازها، وكنت أتساءل ألا يكون من بينها بعض مثُلِ الإنسان المضرّين، ثمّ أستدرك، لعلمى أنّ المثيل المضرّ كان ملزما بالابتعاد عن حياة القطيع.

أجل كنت شيهمًا سعيدًا فى ذلك الوقت، وأنصب أشواكى للتّأكيد، وتلك لدينا طريقة للقَسم، وإلا فنحن نرفع أيضًا الرِّجل اليمنى ونحرّكها ثلاث مرّات متتالية، أعرف أنّ البشر اعتادوا، هم أيضًا، أن يضعوا موضع رهان رؤوس موتاهم أو يدعون ربّهم الذى لم يروه قطّ والذى يعبدونه مغمضى العيون، ويقضّون حياتهم فى قراءة كَلِمه التى وردت فى كتاب ضخم جاء به هنا آدميّون بيض البشَرة فى زمن قَصىّ كان فيه سكان هذا البلد يسترون عورتهم المضحكة بجلود فهد أو ورق شجر الموز ويجهلون أنّ خلف الأفق تعيش شعوب أخرى مختلفة عنهم، وأن العالم يمتدّ أيضًا فى ما وراء البحار والمحيطات، وأنه حين يهبط اللّيل هنا، يكون النهار قد طلع فى مكان آخر، وحين يهطل المطر هنا، تشرق الشّمس هناك،

واتّفق أن كان بحوزة سيدى كيباندى كتاب الرّب، هذا الذى يحوى حكايات كثيرة ينبغى على الآدميّين أن يؤمنوا بها خشية ألا يستحقوا مكانًا فى ما يسمونها الجنّة، لا يخفى عنك أنى حشرت أنفى فيه بدافع الفضول بما أنى أحسن القراءة بطلاقة مثل سيدى، بل إنى كنت أحيانًا أتولى القراءة بدلاً عنه حينما يكون مرهقًا، قرأت كتاب الرّب هذا إذن، قرأت صفحات كاملة، نابضة بالحياة ومؤثرة، قلت لك، سطّرت فقرات منه بأشواكى، وسمعت بأذنىّ الصغيرتين عددًا من تلك الحكايات من أفواه أناس جدّيّين، أناس لهم لحى صغيرة مشتهبة، يقصدون كنيسة القرية فى أيام الأحد، كانوا يروون تلك الحكايات فى نوع من الدقة والإيمان ما يجعلك تستخلص أنهم كانوا هم أنفسهم شهود عيان للأحداث المروية، لتعلم أن أكثر الحلقات التى يرويها ذوو الرِّجلين الذين يمتلكون ملكة الكلام هى تلك التى تروى سيرة شخص غامض، نوع من التائه المستهوى للناس، ابن الرّب فى ما يقولون، جاء إلى الدنيا بطريقة معقدة، دون أن يُفصّل فى هذا الكتاب كيف تزاوج أبوه وأمه، إنه ذلك الشخص الذى يتجول فوق المياه، وهو الذى يحوّل الماء إلى نبيذ، وهو أيضًا من يضاعف أرغفة الخبز لإطعام الشعب، وهو كذلك من يحترم المومسات اللاتى يرميهن الناس بالحجارة، وهو أيضًا من يهب الأرجل للمقعدين الأشد يأسًا، والبصر للعمى، وقد جاء إلى الأرض لينقذ البشرية جمعاء، بما فى ذلك نحن معشر الحيوانات، لأنه، كن على بينة من ذلك، منذ زمن بعيد، ولحفظ عيّنة من كل فصيلة تعيش على هذه الأرض، لم يقع نسياننا، فقد جمعونا فى قفص أسموه سفينة نوح لكى ننجو من أمطار ساحية دامت أربعين يومًا وأربعين ليلة، الطوفان ذلك هو اسمه، ولكن بعد حقب طويلة كان

الابن الوحيد الذى بعثه الرب إلى هذه الدنيا عرضة لأناس سذّج، كفرة، رجموه وصلبوه، وتركوه فى مرمى شمس حامية، ويوم حاكمه أولئك الذين اتهموه بالإخلال بالنظام بسبب معجزاته المذهلة، وأثيرت مسألة المفاضلة بينه وبين متهم آخر، شخص بائس بلا دين ولا خلُق يدعى بَرَبّاس، اختاروا العفو عن قاطع الطّرق هذا، وقتلوا ابنَ الرّب المسكينَ، ولكن هيهات، فقد عاد من مملكة الأموات كمن أفاق بعد مقيل قصير، وإن حدثتك عن هذا الشخص الغامض، فلا يعنى ذلك أنى أبتعد عن اعترافاتى، وإنما لأنى مقتنع بأن ابن الرب هذا لم يكن شخصًا عاديًا، كان مطلعًا على السرّ مثل سيدى، وحاميه لا بدّ أنه مثيل مسالم، فهو لم يؤذ أحدا، الآخرون هم الذين يبحثون عن القمّل فى إكليل رأسه(*)، لنقل إنّ كيباندى، إذا لم يعد يقرأ تلك الحكايات، وصار يفضل عالم الكتب الباطنيّة، فذلك لأنه يعتبر أن كتاب الرّب يؤنّب معتقداته الخاصة، وينتقد ممارساته، وينأى به عن تعاليم أجداده، أى أنه لم يعد يؤمن إطلاقًا بالرب، لكونه فى كل مرة يرجئ إلى غد تلبية الدعوات، فيما كان سيدى يرغب فى نتائج ملموسة فورًا، وكان يستهين بالجنّة الموعودة، لذلك كان يقول كى يقطع عن المؤمنين الأشد عزمًا فى القرية حديثهم، "**إذا أردت أن يضحك الربّ، فحدّثه عن مشاريعك**"، ثم مهما أقسم البشر برأس موتاهم أو باسم عليّهم القدير، وهو ما يفعلونه منذ غابر الأزمنة، فإن مآلهم أن يتنكروا لوعدهم فى يوم ما، لأنهم يعلمون أن الوعد لا قيمة له، فهو لا يلزم إلا الذين يصدّقونه.

(*) إكليل الرأس: «دائرة محلوقة فى قمة رأس رجل الإكليروس. (المترجم).

حال انسحابى إلى الغابة عقب إحدى المهمّات، كنت آخذ فسحة من الوقت للتأمّل من داخل حفرة، وأحيانًا فى قمة شجرة أو فى تجويفها، وحتى على طول الوادى، بعيدا عن استعراض البطّ وموكب الحيوانات الأخرى، كنت أراجع أنشطتنا أنا وسيدى، وهو يغط فى نوم عميق، يسترجع قواه بعد ليلة مرهقة، قد يمتد تأملى حتى مساء الغد، فذلك لا يرهقنى، بالعكس كنت سعيداً بمعالجة المسائل المجردة، فى تلك الفترة كنت قد تعلمت بسرعة أن أميّز بين الأشياء، أن أبحث عن الحل المناسب لعقبة ما، والبشر يخطئون فى التبجّح بذلك، فأنا على يقين من أنهم لا يولدون أذكياء، هم يستفيدون من قابليتهم لذلك دون ريب، الذكاء مثل حبّة لا بدّ من تعهّدها بالسقى كى نراها تتفتح ذات يوم، وتصبح شجرة مثمرة راسخة الجذور، بل إن بعضهم يبقى أشدّ جهلا وأميّة من قطيع غنم يلقى بنفسه فى هاوية لأن أحده انساق إليها، وآخرون يظلون أغبياء مثل ذلك المنجّم الأحمق الذى يتهاوى بنفسه إلى قاع بئر أو ذلك الغراب الشقىّ الذى أراد تقليد نسر يخطف خروفًا، آخرون أيضًا يلحّون فى حمقهم مثل عظاية موتورة تهزّ رأسها طوال اليوم، أولئك سوف يعيشون فى الظلمات، عزاؤهم الوحيد أنّهم آدميّون، والشيهم العجوز الذى يسوسنا كان يمكن أن يقول عنهم "كلّهم حمقى، كونهم

بشرًا هو آخر حجّتهم، والحال أن الذبابة لا تصير عصفورًا لمجرد أنها تطير"، أى أنى خلال تأملاتى كنت أحاول أن أفهم ما وراء كل فكرة، كل مفهوم، أعرف الآن أن التفكير أمر أساسىّ، هو الذى يلهم البشر الكآبة والشفقة والندم وحتى الخبث أو الطيبة، وإذا كان سيدى يطرد هذه المشاعر بحركة من ظاهر يده، فإنها تنتابنى بعد كل مهمة أقوم بها، فقد أحسست فى مرات عديدة بالدمع يسيل من عينىّ لأنك، وحقّ الشيهم، حينما يستبدّ بك الحزن أو تأخذك الشفقة تحسّ بدرنة فى مستوى القلب، وتصبح الأفكار مظلمة، فتندم على أفعالك وسوء سلوكك، ولكن بما أنى لم أكن سوى منفّذ، كنت أخصّص وجودى لدور المثيل الذى أقوم به، فأغالب أفكارى السّود وأعزّى نفسى فى همس داخلىّ بأن فى الأرض أفعالاً أكثر لؤما، أتنفّس بعمق حينئذ، أقضم بعض جذور المنيهوت(*) أو جوز النّخل الكرنبى وأحاول أن أغمض عينىّ، أن أقول لنفسى إن غدا هو يوم آخر، وسرعان ما توكل إلىّ مهمّة جديدة، يتوجّب علىّ عندئذ أن أستعدّ، وأغادر مخبئى، وآتى قرب كوخ سيدى أو ورشته لأسمع تعليماته، كان يمكن أن أتمرّد طبعًا، كنت أفكر فى التنصل من سطوة سيدى ما فى ذلك شكّ، وراودتنى النية أكثر من مرة، فالإغراء كان كبيرًا، لعلّى أجنّب نفسى على الأقلّ بعض الأفعال، وجدتُنى كالمشلول لا أفعل شيئًا، بل إنّى عجزت البارحة عن القيام بأىّ شىء، حيث لم يلح لى غير الجبن حلاّ وحيدًا، حلّ الفرار على طريقة مثيل مسالم فيما سيدى يطلق زفيرًا أخيرًا سوف يقوده إلى العالم الآخر، وبقيت أشهد، فى عجز، نَزْعه، ذلك المنظر الذى انطبع فى ذاكرتى، اعذر لى تأثرى، وصوتى المختلج، لا بدّ أن أستردّ أنفاسى.

(*) جنس جنيبات يستخرج من جذورها دقيق بشرى. (المترجم).

لو ننعم النظر قليلاً فالمفروض ألا أبقى فى عداد هذا العالم، كان علىّ أن ألقى حتفى البارحة مثل كيباندى، البارحة حيث عمّ الهلع والبغتة، فقد أخذنا على حين غرّة، ولم نعدّ ما به نواجه الأحداث فى مثل هذه الظروف، صرت مجرّد شيهم تافه يرتدّ على عقبيه، فى الواقع لم أصدّق وقتها أنى نجوت، وبما أن كل مثيل يموت هو وسيّدُه فى يوم واحد، كنت أقول لنفسى إنّى مجرّد شبح، ولَمّا لمحت كيباندى يشهق الشهقة الأخيرة قبل أن يُسلِم الروح، تملّكنى الفزع لأنه، كما كان يمكن لسائسنا العجوز أن يقول، "إذا **قطعت الأذنان، فعلى الرّقبة أن تجزع**". لم أكن أدرى ما أصنع، كنت أدور حول نفسى، وقد بدا الحيّز يضيق من حولى، خشيت أن تقع السماء علىّ، انقطع نفَسى، وصار كل شىء يرعبنى، قلت فى نفسى لا بدّ لى فى الحال من دليل يثبت وجودى، ولكن كيف تقنع نفسك بأنك موجود، بأنك لست قوقعة فارغة، طيفًا خاليًا من الروح، هه، كان لى بعض وسائل فعالة أخذتها عن رجال من الجهة، يكفى أن أتساءل عمّا يفرّق بين الكائن الحىّ والشّبح، قلت فى نفسى فى البدء ما دمت أفكر فأنا موجود، غير أنى كثيرًا ما أكّدت أن البشر لا يحتكرون التفكير، بل إن سكّان سيكيبَمْبى يؤكّدون أن الأشباح

أيضًا تفكّر بما أنها تعود لإرعاب الأحياء، وتهتدى بسهولة إلى المسارب المؤدية إلى القرية، تتسكع فى الأسواق، تقصد سكنها السابق لتلقى عليه نظرة، تعلن موتها فى القرى المجاورة، تجلس فى إحدى الحانات، تطلب خمر النخل الكرنبى، تشرب كالإسفنج، تحرص على دفع ما تخلّد بذمتها من ديون فى حياتها، وبرغم ذلك فلا وجود لها بالعين المجرّدة، ها أنى ما عدت واثقًا من أى شىء، لا بدّ لى من دليل آخر، جرّبتِ وسيلة قديمة قدم العالم، انتظرت بزوغ الشمس يوم السبت، أى البارحة، غادرت مخبئى، نظرت إلى يسارى، نظرت إلى يمينى، وجلست وسط أرض بور، حرّكت قائمتىّ الأماميّتين، وشبكتهما بعضًا إلى بعض، وإذا بى، وحقّ الشيهم لم أصدّق، لاحظت بارتياح أن طيفى يتحرك، ويتبع إيقاع أعضائى، كنت إذن على قيد الحياة، لم يعد فى المسألة أدنى شكّ، كان يمكن أن أكتفى بذلك، أقسم لك، ولكن لا، لم يحصل لى اقتناع بعد، ولم أكن أريد ارتكاب حماقة، جهدت فى البحث عن دليل حياة آخر، ذاك الذى أعتبره أشدّها أثرًا، رحت أتملّى نفسى فى الوادى، هنا أيضا حرّكت قائمتىّ الأماميّتين، وشبكتهما ثمّ فككت اشتباكهما، فرأيت خيالى يقوم بالحركات نفسها، لم أكن شبحًا إذن لأن الأشباح، حسبما أعلمه حتى الآن، أخذًا دائمًا عن أهالى سيكيبَمّبى، ليس لها طيف، إذ تفقد الهيئة الجسدية، وتصبح أشياء لا ماديّة، وبرغم تلك الأدلة الدامغة التى كان يمكن أن يقتنع بها أى قرويّ، لم أكن واثقًا من وجودى، كنت بحاجة إلى تجربة أخرى، تجربة أخيرة، أكثر مادية هذه المرة، وبما أنى كنت فى تلك اللحظة أتمشّى على طول الوادى، فقد تمرّغت فى التراب، ثم تراجعت استعدادًا للقفز، وألقيت بنفسى فى الماء، غمرتنى برودة العين،

فقلت بعد أن صرت واثقًا كل الثقة إننى ما زلت حيًا، المصيبة أنى كدت أغرق لو لم أخرج بسرعة من الوادى، بعدها بالضبط قمت بجولة قرب كوخ سيدى، لأرى قليلا كيف تجرى الأمور هناك، كنت مختبئًا فى الورشة، حين أبصرت فى ذهول جسد كيباندى تحت سقيفة من جريد النخل، كان قد رحل فعلا إلى العالم الآخر، ولكن ما يخيفنى أكثر أنه خيّل إلى أن جثته، وهى تلوح عن بعد، تحمل رأس حيوان، لنقل رأس حيوان يشبهنى، ربما كان الخوف من فقدانى الحياة هو الذى ولّد لدىّ تلك الأوهام، كان الموت حاضرًا، أمام عينىّ، يدقّ على إيقاع دقّات قلبى، وقد يستولى علىّ فى الدقائق أو الساعات الموالية، أسئلة كثيرة جالت بخلدى، مثلاً **"افرض أن صياداً اعتبرنى طريدته، هه"** أو أيضا **"افرض أن فيضانا حملنى إلى نهر نيارى الهائج، هه"** مثل هذه التساؤلات كانت لا تتركنى أهدأ، كنت متوتّرا، قلقًا، أرتدّ إلى الوراء لأدنى حركة، وقد استشرى فىّ جبن المُثُل المسالمين، من ذلك أنى لذت بمغارة، وهى أول مرة تطأ فيها قوائمى هذا المكان، لم تكن مخاوفى فى غير محلّها، حيث أزعجنى على الفور فحيح أحد الزّواحف، لم أجد متسعًا من الوقت كى أتبين فصيلته، إذ غادرت المكان متكوّرا حول نفسى، والخوف يعتصر أمعائى، قلت فى نفسى إن ثعبانًا له هذا الفحيح لا يكمن فيه غير سمّ قاتل، وأنا لا أريد أن ألقى مثل هذه الميتة، بفعل سمّ زعاف، خرجت من المغارة بسرعة، وقطعت الطريق باتجاه آخر أكواخ القرية، هناك أيضا كان الخطر فى انتظارى، حيث شاحنات نقل اعتادت المرور فى ذلك الطريق مرة فى الأسبوع، ما عدت أذكر اليوم الذى تخترق فيه الجهةَ تلك العرباتُ السريعة عديمةُ الفرامل، خيّرت ألا أقطع الطريق، من يدرى، وبقيت أهيم

فى الجوار، وصورة جثة سيدى يتصدّرها رأسى لا تفارقنى، فقدت عدة أشواك فى الطريق، ثم خجلت من سلوكى، فقد طغى الجانب الإنسانى شيئًا فشيئًا على طبعى الحيوانى، فعيّرت نفسى بأنى تافه، جبان، وأنانىّ مسكين، قلت لنفسى لا يمكن أن أتهرب بهذه الطريقة، مع أنى لم أعد أرى ما يمكن فعله فى الطّور الذى وصلت إليه الأمور، سوف أثير على الأكثر فضول كلاب الباتيكى(*) وسوف تطاردنى القرية كلها للقضاء علىّ، لم أصمد أمام الصوت الضعيف الذى كان يكلّمنى، ويؤنّبنى، ويطلب إلىّ بأن أنجز عملا يليق بى، عملا يثير إعجاب الفقيد كيباندى، فعدت إلى كوخ سيدى بعد ذلك بقليل، برغم خطر كلاب الباتيكى لو تهتدى إلى موضعى، ومن حسن الحظّ أن أولئك الحرّاس المذنّبين لم يكونوا فى مراكزهم، وجدت الوقت لتقليب النظر فى ما يجرى بفناء سيدى، كانوا يتهيّئون لحمله إلى المقبرة، فكيباندى لن يكون له الحق فى جنازة فى القرية تدوم من خمسة إلى ستة أيام على الأقل، كانوا سيوارونه التراب بعد أقل من أربع وعشرين ساعة على وفاته، لمحت مجموعة صغيرة من الرجال تحمل الجثة إلى المقبرة، عرفت فيها العائلة مونجولا التى كانت سببًا فى موت سيدى، وكان من بينها ولداها التوأمان كوتى وكوتاى، كانت عملية شكلية أكثر من كونها دفنًا حقيقيًا، أقسم لك، لم يكن ثمة أحد يبكى، وحق الشيهم، بل إن القرويين يكادون يتمتمون "**كل شىء يُدفع ثمنُه فى الدنيا، ها أن هذا الكيباندى الشرير لقى مصرعه، فليذهب إلى الجحيم**"، وبالنظر إلى الكيفية التى كانوا يجرجرون بها التابوت تفطّر قلبى، أنا على يقين من أنهم إن تظاهروا بذكر مناقب الفقيد فمردّ ذلك، شئنًا أم أبينا، أن البشر

(*) منطقة هضاب ونجاد شمالي برازفيل تسكنها قبائل التيكى. (المترجم).

يدفنون ميتهم برغم مساويه، عندئذ بدأ الكاهن التيمى(*) يلقى تأبينًا جنازيًا رغمًا عنه، فيما تكفّل رجلان قويا البينة بردم القبر، وعاد الموكب فى صمت، وأنا لا أكف عن النظر إلى الصليب المصنوع من أغصان منجا يابسة، ذلك الصليب الذى يميل قليلا إلى اليسار، ويعتلى كدس التراب الذى بات قبرَ سيدى الفقيد، لاحظت مسرجة زوابع تركها القرويون قرب الضريح لكى يتمكن الميت من تلمس طريقه وسط ظلمات الموتِ المُعمية، وخصوصا كى لا يعود البتّة إلى القرية بين السكان بالاندساس فى بطن امرأة حبلى، فالقرويون يعتقدون اعتقادًا راسخًا أن الأموات الذين لا يملكون مسارج زوابع قرب ضريحهم قد يمشون على جثث الأموات الآخرين الذين ينبغى احترامهم بوصفهم سابقيهم، رأيت فى ذلك عملاً طيبًا من أناس يدركون أنهم لم يلقوا من كيباندى سوى المصائب، أبصرت الجمع عائدا إلى القرية فى صفّ متتال، وسمعت همساتهم وتخميناتهم حول أسباب موت سيدى، رفضت الاستماع لأن ما يقولونه يكاد لا يصدّق، فى الحقيقة كنت أودّ الاقتراب من مثوى كيباندى الأخير، أشم التراب الذى يرقد تحته، ولم أفعل، ابتعدت عنه باكيًا، وأنّبت نفسى على إيثارى الهرب كالجبان، التفت إلى القبر ألقى عليه نظرة أخيرة، ثم غادرت المكان وأنا لا أدرى إلى أين أذهب، كان الليل ينداح على القرية، والظلال تتمدّد أمامى، حتى ما عدت أتبيّن أىّ شىء، وجدت صدفة موضعا أقضى فيه ليلى، كنت محصوراً بين حجرين كبيرين، وكان علىّ أن أفلَح الأرض لبرهة طويلة كى أهيئ لى موقعًا، كنت أعلم أن هذا الملاذ مؤقت، لا ينبغى أن أبقى فيه طويلاً، لأن بعض القرويين كانوا يشحذون معازقهم هنا قبل أن

(*) التيمية هى عبادة الأشياء المسحورة. (المترجم).

يقصدوا الحقول، وطوال الليل، قاومت النوم لعلمي أن الموت والظلام صديقان من زمن بعيد، ولما غفوت قليلاً، متناسيًا وضعي بوصفي محكومًا عليه بالموت وصورة تلك الجثة المزروع عليها رأسي، رأيت في ما يرى النائم أني أهوي في حفرة عميقة، ورأيت أيضًا أني وسط حرائق تلتهم الأدغال كلها، وتزرع الرعب في أعدائنا الدائمين أي الأسود والفهود والضباع المرقّطة وبنات آوى والبُبور والنمور والسباع، أفقت منتفضا، وتعجبت من سماع خشخشة أشواكي، وبُهِتّ من تمييزي الأشياء، قلت في نفسي **"ما زلت حيّا، ما زلت حيًا، لم أمت، وحق الشيهم"، كان عليَّ أن أفرَّ من ذلك المكان، وهو ما فعلت على عجل.**

منذ ساعات تقريبًا، أعنى فى ساعات الفجر الأولى من هذا الأحد الذى أحدثك فيه، نفضت الغبار الذى يغطى بطنى ومؤخّرتى، لم أفهم فى الحال لماذا لم يمرّ أى قروىّ قرب الحجرين اللذين لذت بهما كامل الليل، أدركت فى ما بعد أن هذا اليوم هو يوم راحة، وإلا لَلمحت الصيادين وجناة نبيذ النخل وغيرهم من القرويين الذين يقصدون الحقول منذ طلوع الفجر، إذن، قبل أن أغادر الحجرين، تمطّيت وتثاءبت، وأسلمت أمرى لغريزتى، كنت أتقدم بانحراف، ولا أدرى كيف وصلت إلى هذا الوادى المهجور هذه المرة من البط البرى وباقى الحيوانات، أردت عبوره من مكان يكون فيه الماء ضحلاً، وخيرت أن أتجنبه خوفًا من الغرق، وفى محاولتى البحث عن التفافة حوله وصلت إليك، لهذا السبب جلست منذ الصباح عند جذعك أيها الباوباب(*)، جلست أحدثك، وأطيل فى محادثتك وأنا على يقين من أنك لن تجيبنى، مع أن الكلام، كما يبدو لى، يخلّص من الخوف من الموت، ولو استطاع أن يساعدنى على ردّ القضاء، أو النجاة منه، فسوف أكون أسعد شيهم فى الكون.

(*) باوباب أو حُميرة: شجر استوائى عظيم الجذع. (المترجم).

فى الواقع، وأنا أخجل أن أعترف لك بذلك، لا أريد أن أموت، لست واثقًا من وجود حياة أخرى بعد الموت، وإن وُجدت فذاك لا يعنينى، لا أريد أن أحلم بحياة أفضل، الشيهم العجوز الذى يسوسنا على حق حين كان يسرّ إلينا بإحدى أفكاره التى سرعان ما يستحلى أثرها فى نفوس المجموعة "**لكثرة ما تمنى الضفدع ظروفا أحسن، وجد نفسه من دون ذيل إلى الأبد**"، لنقل إن الضفدع لم يفقد ذيله فحسب، بل أصيب بقدر من الدمامة تغدو معه حتّى الشفقة عليه إهانة، لذلك، عزيزى الباوباب، حينما يتحدث البشر عن الحياة الأخرى فإنهم، يا للمساكين، واهمون، وهذه الحياة الأخرى يرونها تحت سماء زرقاء، وملائكة فى كل مكان، هم لا يذكرونها إلا بخير، يتخيلون أنفسهم فى حديقة، فى أدغال هادئة حيث لن يكون للأسد أنياب ومخالب، يطلق ضحكات بدل الزّئير، وحيث لن يكون للموت وجود، الغيرة، والكراهية، والحسد كلها سوف تزول، وسوف يصبح الآدميون سواسية، بودى أن أصدق هذه المسائل، ولكن من يضمن لى أنى سوف أبقى على الأقل شيهما، هه، فلربما أتقمّص جسد دودة، أو دعسوقة، أو عقرب، أو مَدوسة، أو سُرفة نخيل، أو بزّاق، أو أى حيوان حقير غير جدير بمقامى الحالى الذى قد يحسدنى عليه أى حيوان، قد تعترض على قولى هذا بكونى مجرّد متشدّق، منمّقِ كلام مخادع، معتوهٍ ذى أشواك، والحال أنى لا أنتقد الأجناس الحيوانية الأخرى لمتعة المبالغة، فالتواضع أحيانًا عائق يمنعك من العيش، لذلك أضع خصالى موضع الصدارة منذ أن وعيت أنّه يستحسن تقليص قائمة عيوبك لكى تقبل نفسك كما هى، أفضّل مثلا أشواكى الجميلة على الجرَب المزمن الذى يصيب كلاب القرية، لا أتحدث عن تلك الحيوانات التى يُرثى لها فى هذا العالم حيث يوجد دائمًا من هو مغضوب عليه أكثر منك، القائمة طويلة، لأنْ

أعُدّ عشرات الآلاف من أشواكى أسهلُ علىّ من تعداد الحيوانات التى تحمل ضغينة ضد خالق هذا الكون، أفكر فى السلحفاة المسكينة ودرقتها الخشنة، فى الفيل وخرطومه المعوِّق، فى الجاموس التعس وقرنيه المضحكين، فى الخنزير القذر وفنطيسته التى يحشرها فى الحمأ، فى الثعبان مسلوب القوائم الذى يتنقل زحفًا، فى الشّمبنزى الذّكر وخصيتيه اللتين تتدليان مثل قربتين ملآنتين بخمر النخيل، لن أذكر البطّ ورجليه الراحيّتين اللّتين تفرضان عليه رخاوة مَعدِيّات الأرجل، أى أننا نجد فى الدنيا حشدًا من المخلوقات جديرة بالشفقة، ونوعنا نحن لا يحسد فى شىء الأنواعَ الأخرى، يكفى أن يكون البشر حسان النية كى يعطونى الحقّ لأنى، وحق الشيهم، أعتذر هنا على رفع نبرتى، كلا، لا أقنع بقرض لحاء الشجر على مسافة أمتار من مقر هجوعى ولا بالتخفى فى الحفر كالعاطل، كنت لا أشبع من أكل عظام الحيوانات الميتة أو الثمار التى تقع من الشجر، وحينما تنتهى مهمتى، لا بد أن أقول لك، أعود إلى الغابة، وأنكمش فى وحدتى التى لم تثقل على حتى يوم الجمعة الماضى، كنت أفكر فى المعنى الذى أمنحه لعلاقتى بسيدى، لن أدعك تتصور أنى فى تلك الفترات لم أكن سوى كائن مضن، مرهق، واقع فى فخّ قدَره الغامض، كلا، أريد أن أعيش هنا والآن، أن يكون لى عمر يضاهى فى طوله عمرك، ثم، بينى وبينك، لن أضع حدًّا لحياتى بدعوى ألا حق لى بعد اليوم فى الحياة، أنت تفهم ما أعنى، هه، أحاول أن أنظر إلى الأشياء بتفاؤل، أحبّ أن أمزح بين الحين والحين، أن أبين أن الضحك ليس دائمًا خاصًا بالإنسان، وحقّ الشيهم.

لا أدرى إن كنتَ لاحظت حالة غريبة هذا الصباح حينما بدأتُ التحدث إليك، لم أشأ لفت انتباهك إلى هذا الأمر الشاذّ، فقد

لمحت عظاية فى عمر معين تتقدم نحوى، توقفت على مسافة بضعة أمتار، نظرت خلفها، أخرجت لسانها، حرّكت ذنبها، رأيت عينيها تتسعان فى ذهول، بدت كأنها تحجّرت، بهتت من هذرى وحيدًا من غير مستمع بشكل أفزعها ففرّت، وتوارت برغم الخطر فى جحر فيران، ضحكت مثل أحدب لأنى منذ مدة لم أضحك بهذه الكيفية، وسرعان ما شكمت نفسى لأن أناسًا كثرا فى هذه القرية ماتوا من فرط الضحك، وحين يعاودنى التفكير فى تلك العظاية المسكينة أقول فى نفسى ربما كانت تلك أول مرة تفاجئ فيها حيوانًا يتصرف كالآدمىّ، ينطق بكلام متناسق، يهزّ رأسه علامة على الموافقة، يرفع قائمتيه الأماميتين إلى السماء ليُقسم، أشفقت عليها حتى وإن كان سائسنا غالبًا ما يزعم أنى فى صغرى كنت أخاف من العظايا خوفًا عظيمًا، ولا شك أنها ظنت أن ما رأته حلم، أما أنا فقد واصلت مخاطبتك كأنّ شيئا لم يكن اختيارى التخفى عند جذعك لم يكن وليد صدفة، لم أتردد لحظة واحدة فور رؤيتك وأنا أسير بمحاذاة الوادى، قلت فى نفسى هنا ألجأ، فى واقع الأمر أريد أن أستفيد من خبرتك العريقة، يكفى أن ننظر إلى التجاعيد التى تتشابك حول جذعك كى ندرك أنك عرفت كيف تتأقلم مع تواتر الفصول، جذورك نفسها تمتد بعيدًا، بعيدًا جدًا فى جوف الأرض، ومن حين إلى آخر تحرك أغصانك لتفرض على الريح وجهتها، وتذكّر الطبيعةَ أنْ السكون هو وحده الذى يتيح العيش طويلاً، وأنا هنا، وحق الشيهم، أثرثر، وأرتعب حين تفر ورقة من رأسك، ولا بد لى إذن من استرجاع أنفاسى قبل أن أواصل، فنفسى انقطع، والأفكار تزداد ازدحامًا شيئًا فشيئًا، أظن أنى أسرع فى الكلام منذ الصباح، أريد أن أجرع قليلا من الماء، حسبى أن ألِغ طلّ الأعشاب التى تحيط بى، لن أغامر بالابتعاد عن جذعك، كلا، صدّقنى.

كيف هجرت عالم الحيوان

كم هى بعيدة تلك الفترة التى كان لزامًا علىّ خلالها أن أنفصل عن محيطى الطبيعى وأتقرّب من محيط ذلك الذى لم يكن وقتها سوى صبىّ والذى كنت أدعوه بحنان " كيباندى الصغير "، سنوات مرّت، والذكريات دقيقة كأنّ ما حدث حدث بالأمس، كان كيباندى وأهله وقتها يعيشون فى شمالىّ البلاد، فى مكان بعيد جدًا يدعى موسّكَا، منطقة مياه وأشجار عملاقة وتماسيح وسلاحف ضخمة بحجم الجبال، وكان الوقت قد أزف كى أهجر عالم الحيوان وأبدأ وجودى كمثيل، كان علىّ أن أتجلّى لسيدى الناشئ، وكان كيباندى الصغير قد **استشعرنى** منذ الأيام الأولى التى بدأت أظهر فيها بمزيد من الإلحاح، أساعده أن يتبصر حياته بصفاء أكبر، لا أدرى ما الذى كان سيحدث لو لم يقع انصهارنا فى أسرع وقت ممكن، وصلت فى الوقت المناسب، كان عمره عشر سنين، السن المطلوب لتلقى مثيل ضارّ، ولَمّا وصلت إلى مداخل تلك القرية، رأيت الولد خلف أبيه، كأنه طيف، أحسست بالشفقة على ذلك الطفل الذى كانوا يسارّونه، ذلك الطفل الذى لم يعد قادرًا على تهدئة حالة سكر ولّدها تجرّعه **المايَمْفومْبى**، كان أبوه قد دفعه إلى تسوّر جدار عال، وها أن عالمًا جديدًا ينفتح أمامه، صار خلقًا آخر، الكائن الهشّ

الذى كان سكان موسّكا يرونه خلف بابا كيباندى لم يعد سوى دمية متحركة، ظرفًا فاضيًا تبخر محتواه وبقى ينتظر فى مكان ما ساعة التقائه بمثيله، ليشكل معه كيانًا واحدًا متماثلاً، لم يعد كيباندى الصغير ينام، كان عليه أن يصارع مفعول ذلك الشراب الطقوسى، فيما كنت فى الوقت نفسه أمعن فى الاضطراب وسط الغابة، صارت الأدغال بالنسبة إلىّ مزعجة، مكانًا ما عدت أطيق البقاء فيه، كنت أبحث كيف أنسحب منه لأنصرف إلى العيش قرب قرية سيدى الصغير، وأنا أجهل ساعتها أنى سأكون عرضة لغضب الشيهم العجوز الذى يسوسنا، ذلك الذى يصم البشر بكل النعوت طوال يومه.

كانت تلك أكثر الفترات اضطرابًا فى حياتى حيث كنت مدعوًا إلى الفصل بين هذا الصبىّ وعائلتنا الشيهميّة الصغيرة، كنت أتلقى غضب شيخنا، وقد بات يزداد تصلبًا يومًا بعد يوم، وكأنه اشتمّ التحولات التى تحدث فى حياتى، كأنه أحس ما سوف يقع لى، صار يكثر من الاجتماعات، يكلمنا بتعال، يرفع نبرته، يخطب فى حركات متصنّعة، يداعب لحيته الصغيرة بمخالبه ثم يشبّك قائمتيه الأماميتين، وشدقه إلى السماء مثل آدمىّ يبتهل إلى نزامبى يا مبونغو،لم يكن لدينا ما نقول ما دام هو المنتصر فى النقاش، كان يؤكد لنا مثلاً أن ذلك الوادى كان فى ما مضى يمرّ من الناحية الأخرى، وعندما نسأله عن الوقت الذى استغرقه هذا المجرى المائى كى ينجز تلك النقلة العجيبة، يمرّ بقائمته على أشواكه المتآكلة متظاهرًا بالتفكير مغمض العينين، ويرينا السماء، أقهقه، فيثير ذلك غيظه بشكل يجعله يهدّدنا ويطلق إنذاره النهائى الذى حفظناه عن ظهر قلب، "ما دام الأمر كذلك، فلن أقول لكم بعد اليوم شيئًا حول

البشر وعاداتهم، **لستم سوى جهلة**"، وبما أننا لا نتوقف عن الضحك يضيف فى غموض "**حينما يشير العاقل إلى السماء، ينظر الأحمق دائمًا إلى الإصبع**"، ولكن لَمَّا كنت لا أكبح رغبتى فى معرفة ما يجرى لدى أبناء عمومة القرد كان الشيهم العجوز يستشيط غضبًا، ويطلب من رفاقى بألا يفارقونى قيد قائمة، هل كان يعلم أنى مقدم على اقتحام الحلبة منذ أن تناول الطفل كيباندى الشراب المسارّى، هه، لم يكن يعلم بذلك، عزيزى الباوباب، كنت أختفى خلسة، أحيانًا بالتواطؤ مع اثنين أو ثلاثة من رفاقى الذين كنت أعدهم بأن أحكى لهم عن تقاليد البشر الحقيقية، ما دام شيهمنا العجوز يؤثر المبالغة ويكاد يدعو إلى محاربة الجنس الحيوانى للجنس البشرى، كانت اختفاءاتى فى الأدغال تدوم أيامًا وليالىَ، لا أحس بالراحة إلا فى تخوم قرية سيدى المقبل، وكان سائسنا يثور ثائره عند عودتى إلى أرضنا، ويكيل لى شتائم لا حصر لها، ولكى يمعن فى تشويه صورتى، يعيد على أسماع رفاقى أن البشر أفقدونى عقلى، وأنى كنت أسعى بأرجلى إلى الهلاك، وأنى أوشك أن أنسى عاداتنا، وأنى سوف أبتعد عما جعل منا أنبل حيوانات الأدغال، ويقسم عجوزنا المتفلسف أنه سيجىء يوم أقع فيه فى فخاخ ينصبها لى البشر فى الغابة، بل قد أستسلم حتى للفخاخ التافهة التى يتعلم بواسطتها أطفال موسّكا كيف يصيدون العصافير باستعمال قصعة أمهاتهم الألمنيوم، وكانت الشياهم الأخرى تتلوى من شدة الضحك، لأنها هى أيضًا تفضل الوقوع فى فخ صياد حقيقى على أن تقع فى فخ آدمى لا يزال يرضع أمه، وفخاخ الصغار هذه كنا نراها فى أماكن شتى عند أبواب قرية الشَّمال تلك، ولكن ينبغى الإقرار، عزيزى الباوباب، بأن طيور موسّكا هى وحدها التى

تقع بهذه الكيفية، وخاصة طيور الدّورى التى تعتبر أغبى طيور هذه البلاد، أنا لا أريد أن أعمم غباءها على الأجناس الأخرى ذات الفقار والريش والمناقير والمزودة بأعضاء تسمح لها بالطيران، إلا أن دورىّ موسّكا كان لها حاصل ذكائى متدنّ بشكل يثير الشفقة، ولا شك أن طيور الدورى فى العالم متشابهة كلها، أفهم أنها بمنأى عما تجرى على سطح الأرض لكثرة تحليقها هنا وهناك، وفخاخ الصبيان نصبت من أجلها هى، حيث يضع أولئك الآدميون الصغار وسط أرض واسعة جفانا مشدودة بقطعة من خشب، يربطون حولها خيطًا رفيعًسا يكاد لا يرى، ويختفون خلف أكمة، على مسافة مائة متر، فتأتى تلك الطيور التعسة منجذبة إلى حبوب ملقاة حول الجفنة، فتتزاحم وتزقزق فى أعالى الشجر قبل أن تقرر بالإجماع النزول دون أن تكلف نفسها تعيين حراس ينذرونها إذا حمّ الخطر، ثم يجذب الأطفال خيطهم، خيط فخ السذّج ذاك، فتجد طيور الدورى نفسها سجينة تحت الوعاء، ولكن الغريب، عزيزى الباوباب، ألا أحد منها استشعر ذلك الخطر الذى لا يخفى عن عيان أى حيوان آخر حتى ولو كان فاقد الإدراك، ألا تستطيع تلك الطيور أن تقول لنفسها إنه لأمر غريب أن يوجد وعاء وسط أرض بور، وإن فى الحبوب الملقاة على الأرض دون أن تقربها الطيور الأخرى ما يدعو إلى الريبة، أنا لم أقع قط فى تلك البحيرات، وإلا لما كنت هنا كى أحدثك عن كل ذلك، قلت إذن إن رفاقى الذين مذهبَهم سائسُنا بدءوا يتصورون أنى واقع لا محالة فى تلك الفخاخ، "**الطبل مصنوع من جلد الرشأ الذى ابتعد عن أمه**"، يتنبّأ رجلنا الأسترالى(*)، وهو

(*) أو رجل استراليا: رجل قديم يقول علماء الحفريات إنه عاش فى إستراليا واستعمل النار والحجر. (المترجم).

على يقين من أنى لا أفهم ما يعنى، وكانت تلك الكلمات تثير هرجًا ومرجًا داخل المجموعة، ويستعيدها بعضهم بمناسبة وبغير مناسبة، حيث يقلدون حركات البطريرك، بل إنهم صاروا يسخرون منى وينادوننى "الرّشأ" إلى أن ضقت ذرعًا بتلك المزح التى ما عادت تضحكنى، فشرحت لهم أن الرشأ هو ولد حيوان أشقر، أيّل أو أيّل أسمر أو يحمور، والحال أنى شيهم، شيهم ومعتز بذلك.

لَمّا كان الحيوان الذى يتحول إلى مثيل مضرّ لإنسان ما مُطالبًا بهجر بيئته الطبيعية، عائلته، فإن القطيعة بينى وبين أفراد جماعتى حصلت هناك، فى موسّكا، والحال أننا نحظى بالعيش داخل طائفة بالرغم من أن الشيهم مشهور بميله إلى العزلة والانفراد، وكان سائسنا يعقد مجلسًا كل مساء، ويطلق عمومياته، وكنت أدرك أنه يتحدث عنى بكلمات مبطّنة حين يؤكّد ألا أحد فى الغابة يتعذّر استبداله، وأن الشياهم المغرورة ليست غريبة عنه، وأنه يعرف كيف يردّها إلى مكانها، وإذ يرانى ألزم الصمت يزداد دقة، ويزمجر بكلام من نوع "**السمكة التى تتبختر فى الرافد تجهل أنها ستنتهى عاجلا أم آجلا سكمة مملّحة تباع فى السوق**"، لم يعد يتردد فى تذكيرى بأنى يتيم، وأنى لولاه لما كنت شيهما يتمتع بالحياة، هو يروى أن والدىّ كانا أشد تعنّتا منى، وأنهما هجرا هذه الأرض بعد مجيئى إلى الدنيا، كنت فى سن ثلاثة أسابيع تقريبًا، وسائسنا يتبجّح بأنه احتضننى، هو وأنثاه الفقيدة، ويدقق أنى كنت أتبرّز طوال اليوم، وأنى لم أكن سوى كسول، وأن العظايا الصغيرة تصيبنى بالرعب، والآخرون يمعنون فى القهقهة، بفضله أيضًا تعلمت عادات والدىّ، يبدو أنهما كانا يحبان مخالطة الجنس

البشرى، يحتجبان أثناء الليل، فيتسكّعان بجوار آدميى موسّكا ولا يعودان إلا فجر الغد، مرهقين من قلة النوم، العيون حمر، والمخالب معطنة بالوحل، فيقضيان كامل اليوم فى نوم عميق أشبه بنوم الجرذ السنجابى، لم يكن للسائس أى تفسير لذلك، كنت قد بدأت إعادة تركيب تلك النتف الصغيرة لما كانت عليه حياتهما، ولم يعد يساورنى شك فى حقيقتهما، لقد كانا مثيلين مضرّين، وصلت إلى هذا الاستنتاج يوم داخلنى أنا أيضًا نداء الطفل كيباندى، قبلت فكرة انحدارى من سلالة شياهم منذورين لخدمة البشر، ليس من أجل السرّاء، بل من أجل الضرّاء، كنت أحقد على سائسنا كلما تحدث عن موت والدىّ، فهو يزعم أنه حاول التجسس عليهما ذات ليلة ليعرف أى مكان يقصدان بمثل تلك الهمة والنشاط، ولكنهما تاها عنه بين أجمتين لأنه كان آنذاك يعانى من ضعف النظر، ومر أسبوع دون أن يأتى عنهما خبر، ثم جاء ذلك اليوم المظلم، اليوم الثامن على اختفائهما، ذلك اليوم المنحوس الذى حلقت فيه فوق أرضنا بومة سحقت رجلَها فخاخُ الرجال، فيما يبدو، لتعلن للسائس عن خبر سوء كان يتبدى فى أشداق أغلب حيوانات الجهة، أعلمه يومها أن صيادا قتل والدىّ غير بعيد عن موسّكا، وهو ما دفع الطائفة كلها للرحيل على عجل والبحث عن موطن آخر على مسافة عدة كيلومترات من موطنها.

ورغم ذلك لم أكن أحسب حسابًا لمصير منجبىَّ بما أنى لم أعرفهما قطّ، تركت السائس العجوز يروى أكاذيبه للآخرين، واعتمدت على غريزتى، حيث كنت أمعن شيئًا فشيئًا فى مغادرة الغابة، دون أن أجعل بين اختفاءاتى زمنًا محصورًا، ولأول مرة احتجبت طوال أربعة أيام وأربع ليال، كنت أغذّ السير، ما عاد

يوقفنى أى شىء، كان ذلك أقوى منى، وكان الرفاق يبحثون عنى فى كل مكان وهم من الذعر فى غاية، يفتشون الآجام التى اعتدنا أن نجد فيها نبع ماء نكرع منه فيما يتولّى أحدنا الحراسة، عسى أن يكون فى الجوار صيادون مندسّون، لم يجدونى فيها، وفى غمرة اليأس راحوا يسألون حيوانات أخرى من بنى جنسنا، أولئك الذين لا يعرفون عن أى شيهم يُسألون عندما تذكر لهم أوصافى، بعضهم يقولون إنى كنت أسعى متشمّمًا كل سنتمتر مربّع، والبعض الآخر يضيفون أنى كنت أختفى عادة خلف الأشجار كأنى أخشى باستمرار خطرًا ما، فى ذلك اليوم أكد السائس أن لى مشية شيهم سحق رجلَه فخٌّ طفل لا يزال يرضع صدر أمه، وزعم أنى كنت أعرج وأظلّع، فاعترض كثير من رفاقى بشدة على هذه الكذبة التى تساوى العرين فى كبر حجمها، وواصلوا البحث لأنهم يستلطفوننى، وبما أنى كنت أحب الاختفاء فى تجويفات الشجر، الشجر الذى يشبهك بخاصة، تفقدوا أول ما تفقدوا أجواف جذوع الباوباب، ثم النخل الذى فى الأرجاء، فأزعجوا بالمناسبة راحة السناجب الذين لم يترددوا فى قذفهم بجوز النخل قبل أن يكيلوا لهم السباب، بلغتهم، أما أنا فقد كنت فى أنحاء موسّكا حتى أتشبع بالطفل الذى سأكون مثيله، كانت لى فكرة غائمة عنه لأنى كنت أراه فى الحلم، حينما ينتابنى فى جوف الليل وجيف قادم من حيث لا أدرى لا يدركه غير الحيوانات المؤهلة للالتحام بالإنسان، إلا أنى أردت التأكد من كونى لست مخطئًا فى اختيار الصبىّ، ولم يجل بخاطرى أنى سأقيم طويلاً فى موسّكا، وأنى سأهجر جماعتى إلى الأبد.

فى الواقع، عزيزى الباوباب، فى تلك الفترة لم أنْو مغادرة أرضنا بغير رجعة، أقسم لك أنى كنت حريصًا على العيش وسط الطائفة، مقتنعًا بقدرتى على حياة مزدوجة، أن أحيا حياة بالليل، وأخرى بالنهار، أن أكون فى الوقت نفسه قرب سيدى وأواصل الاختلاط برفاقى، وهو ما يلائم للأسف طبيعة المثيل المضرّ، هناك، أثناء تجوالى فى موسّكا، أحسست السائل الذى جرّعوه للطفل كيباندى يسرى بداخلى، تملكنى الغثى، وشوّش الدوار نظرى، وصارت أشواكى أوزارا يصعب علىّ حملها، لم أعد أنظر إلا أمامى، كما لو أن الطفل يستنجد بى، كأنه فى حاجة إلىّ، كان علىّ أن أكون هناك، وإلا فقد يصيبه مكروه، كنت أمسك بحياته بين قوائمى، أتنفس الهواء الذى من نصيبه، كنت هو، وكان أنا، ولكى أعيد الأمور إلى نصابها وجب على أن أتجلى دون إبطاء، كان قلبى يكاد ينفجر، وما عدت أعى ما أكون، ولا أين أوجد ولا الغرض الذى كنت ذاهبًا من أجله إلى موسّكا، كان ينبغى علىّ أن أمشى، أتقدّم، أتّبع أول ثنية أمامى، وأقطع كيلومترات وكيلومترات، صحيح أنى لا أستطيع الوصول فى اليوم نفسه، ولكن كان لا بدّ من الذهاب، وبما أن المطر كان يهطل فى ذلك اليوم، اضطررت عند بلوغى منتصف الطريق أن

ألوذ بمغارة لقضاء الليل حتى يوم الغد، لا بد من القول إنى لا أحب المطر كثيرًا لأن عددًا من رفاقى هلكوا بعد أن حملتهم المياه حتى قلبِ شلالات نهر نيارى، لم أصادف فيها غير ضفادع وفئران صغيرة كنت أستطيع تخويفها، أدركت نواحى موسّكا فى اليوم التالى عند غروب الشمس، وعندما وصلت إلى مداخلها مرهقًا، سائل اللعاب، ثقيل الأجفان، نمت خلف كوخ غير بعيد عن واد اكتشفته لأول مرة، كان ساعدَ نهر نيارى الذى يقسم البلاد شطرين، هناك استرحت وأنا أقول فى نفسى إنى سآخذ متسعًا من الوقت فى صباح الغد للبحث عن كوخ عائلة كيباندى لأنى لو جازفت أثناء الليل فربما كنت وقعت فى قبضة الصيادين أو كلاب الباتيكى، وفى جوف الليل شعرت بتيار هوائى قوىّ وبأوراق ميتة تتعالى فى الفضاء، تلتهما حركة غريبة كأن شيئا ما قادم نحوى، "هذا رجل، **وحق الشيهم، إنه رجل لمحنى وقد جاء يريد قتلى ولا بد لى أن أهرب"،** قلت لنفسى تحت وطأة الذعر، أردتِ الخروج من مخبئى، أن أنفذ بجلدى، ولكنى للأسف كنت أشلّ، عاجزًا عن تحريك أى قائمة من قوائمى، كأنما وقع تخديرى، كنت مخطئًا فى الواقع، فقد كان حسّ دابّة تتنقل، رفعت حينئذ أشواكى دون أن أعرف الحيوان الذى يزداد منى اقترابًا، تمنيت أن يكون أصغر منى حجمًا، ويتهيّب الأشواك، كنت مستعدًا لقذفها إن لزم الأمر لقدرتى على ذلك بعكس أشباهى، لم أحتج للوصول إلى ذلك الحد، فالمسألة لا تستحق منى عناء، تنفست الصعداء واطمأن قلبى حينما لاح الحيوان أخيرًا قبالتى، كدت أنفجر من شدة الضحك، وأعطى الحق لسائسنا الذى كان يؤكد أنى طوال أشهرى الأولى على هذه الأرض، كنت أرتعب حتى لرؤية عظاية صغيرة، فى ذلك اليوم لم يكن ثمة ما

يرعبنى، إذ كان فى الواقع مجرد جرذ بدا أنه أخطأ طريقه ووجد نفسه أمامى، أشفقت عليه، لعله يريد بعض المعلومات، لا أستطيع أن أفيده بشىء فأنا لا أعرف الجهة، ثم عدلت عن فكرتى، قلت فى نفسى هذا الجرذ شكله غريب، مشيته التى تشبه مشية البزّاق تكشف عن ثقل الأعوام التى كبّلت قائمتيه الخلفيتين، هذا الجرذ ليس كبقية الجرذان، إنه هنا لسبب معين، ربما للخلاص منى، أو منعى من الوصول إلى الطفل كيباندى، إنه يتحدانى الآن بعينيه الجاحظتين، كشّر فبقيت ثابتًا لا أتزعزع، أفهمته أنى لست ممن يرعبهم جرذ من جرذان موسّكا، وأنى رأيت فى حياتى ما هو أشدّ رعبًا، دار حولى، وجعل يتشمّم عضوى التناسلى، فلحسه قبل أن يتوارى فى جحر محاذ لمسكن يبعد عنى مسافة مائة متر، فهمت حينئذ أن ذلك المسكن هو الذى كنت أبحث عنه، كان ذلك الجرذ الهرم مثيل الأب كيباندى، وقد جاء يؤكد وضعى كمثيل لابنه، كانت تلك نهاية النقل الذى بدأ بتجرع الشراب السارّى، والنقل يتم بتلك الكيفية، بين الآدميّين أولا، الموجِّه والملقَّن عن طريق تجرع المايَمْفومبى، ثم بين الحيوانين، بأن يلحس مثيل حيوان الموجِّه ذكَر مثيل الطفل الملقَّن، أى أن مثيل الأب كيباندى كان يريد التأكد من أن الحيوان الذى سوف يعيش مع ابنه حيوان شجاع، حيوان يستطيع أن يحافظ على برودة دمه عند الخطر، ولو أبديت علائم اضطراب، أو حاولت الهرب، لقضى علىّ دون تردّد، وقد وجد ما كان ينتظره منى، يا عزيزى الباوباب

بما أنه مرّ أربعة أيام وأربع ليال منذ غادرت الأدغال باتّجاه موسّكا، فإن القضيّة فشت بين سائر حيوانات فرعنا، وراجت إشاعة عن شيهم ميت عند جذع نخلة، فهرع رفاقى إليها على

عجل، وقلبوا مرات عديدة جثة الحيوان المسكين الذى نهشه النمل الأحمر، وانتهوا إلى أن ذلك الشيهم لا يشبهنى فى شىء لأن له تشوّها فى الشدق، ولم ينخدعوا طويلا، فهم لن يقضوا حياتهم كلها فى البحث عنى، كان لا بد من قبول الأمر الواقع، واتخاذ الإجراءات اللازمة، فعادوا إلى الغابة صفّا صفّا، تراءى لى سائسنا وهو يؤكد لرفاقى بارتياح نبأ موتى، ويشرح لهم أنى وقعت فى فخاخ صبيان موسّكا، ويساورنى الظن أنه أضاف أنى عنيد بطبعى، متكبّر مثل البشر، وأنى أتكلم فوق اللزوم، وأن غرورى سبّب هلاكى، وأنى أفضل الحياة الدّاجنة على حرية الغاب، تخيلت أيضا، كالعادة، ربما رغبة منه فى ركلى ركلة ذلك الحيوان الغبى الذى يسميه البشر حمارًا، أنه انبرى فى خطاب وعظى مسهب، ولكى يوضّح كلامه، روى خرافة كان يحكيها لنا بمتعة، خرافة تحملنا على التفكير، **جرذ المدينة وجرذ الحقول**، قلت فى نفسى إنه حكى لهم عن جرذ المدينة الذى استدعى ذات يوم جرذ الحقول، وكان هذان الحيوانان يطعَمان عند البشر حينما سمعا ربّ البيت يدخل، لاذا بالفرار ولما هدأ الضجيج وبدا أن الخطر انقشع، اقترح جرذ المدينة على صديقه أن يعودا حيثما كانا ليستأنفا وجبتهما، جرذ الحقول رفض ذلك الاقتراح، وذكر رفيقه بألا أحد فى الغابة يقاطعه حين يأكل، عندئذ، عزيزى الباوباب، قد يكون سائسنا العجوز قد كشف فى قولة لاذعة عن العبرة من تلك الخرافة التى لم يدركها رفاقى مرة أخرى برغم شروح كنت أهمس لهم بها قبل أن يختم العجوز قوله فى نبرة مترفعة "**لا خير فى لذة يفسدها الخوف**"، ولا شكّ أنه تمتم "**ماذا ينفع الأكل الفاخر فى غياب الحرية، هه**" إذن، صدقنى، فقد بيّن فى شتى المناسبات أن ما حدث لى كان يمكن أن يحدث لكل من

يفكر فى المغامرة بنفسه مع البشر، "**كذلك يؤول بغير الواعى مصيره، صياَح صغير شهدت مولده، وأجَرته، صغير كان يموت خوفاً أمام العظايا، ويتغوّطِ حيثما حلّ، صغير لا يعترف بأدنى جميل لأن الطبيعة شاءت أن نحتمل كلنا أشواكاً، إن جلد الرشأ يصلح طبلا للآدميين، فلتتعظوا بذلك**"، كذا قد يكون ختم كلامه، وكان اليوم، ما زلت أتخيله، يوماً حزيناً بالنسبة إلى رفاقى، ولا شك أن الشيهم العجوز لم يقطع خطبته لأمر كهذا لأنه، بذلاقة لسانه المعهودة، يحب إيضاح كلامه بخرافتين أو ثلاث حفظها عن أجداده، وأنا على يقين من أنه روى الخرافة التى يفضلها رفاقى، **الخطاف والعصافير الصغيرة**، يحكى أنه كان يعيش فى ما مضى خطاف سافر كثيراً، وشاهد كثيراً، وتعلم كثيرا، واحتفظ من أسفاره بقَدْر كبير يجعله يتكهّن للنوتية بأدنى عاصفة، هذا الخطاف الواثق من معرفته وتجربته كرحّالة، خاطب ذات يوم عصافير صغيرة لا واعية يحذرها من الخطر الذى يتربص بها عند بداية موسم الزرع لدى البشر، ونبهها إلى أن فى الزرع خرابها المرتقب، وأنه لا بد مما ليس منه بد من إتلاف الحبوب، بأكلها الواحدة تلو الأخرى، وإلا فلن يكون مصيرها غير القفص أو القِدر، لم يبال أى عصفور من تلك العصافير الصغيرة بنصائح الخطاف العالِم، بل غطّت كلها آذانها بأجنحتها كى لا تسمع مماحكات كائن مجنّح، فقدَ فى نظرها قدرته على التمييز من فرط ارتحاله عبر العالم دونما غاية محددة، وعندما صدقت نبوءته أمام ذهول معشر العصافير الصغيرة، وقع أكثرها فى الأسر والعبودية، فى هذا الطور من الحكاية، قد يكون سائسنا ختم خرافته بقوله "**ولا نعرف الشرَ إلا عند حدوثه**"، لا أشك أيضًا أنه طعّم ذلك باستعارات أخرى لم يقدر أحد على فكّ

معناها فى غيابى، لأنى، كما حدّثتك، أنا الذى كان يكشف للآخرين عن المعنى المخفى لحِكم الشيهم العجوز ورموزه، وحينما ينتهى من سرد خرافة **الخطاف والعصافير الصغيرة**، يقول قول المعتد بحكمته فى وقار لا يعرف انتحاله سواه "**أنا الخطاف المقصود، وأنتم العصافير الصغيرة اللاواعية، أنتم لا تستطيعون أن تفهموا، إنها حِكم تتجاوزكم**" وإن ظل رفاقى منتبهين فالعجوز لا شك سيطلق عليهم صيغة أكثر فظاظة، من نوع "**لن تفهموا أى شىء، الحكيم العجوز وحده قادر على سماع الجراد يدفق منيّه**"، ولكن فى هذه المرة لا ريب أنه قال، وفى نبرته جدية أكبر، "**هيا، لنمرَّ إلى شىء آخر، ليس ثمّة من لا يمكن تعويضه فى هذه الغابة، وليتحمل الرشأ الذى يتصرف كالبشر جرائر فعله**".

كل ذلك لأشرح لك كيف أن كثيرا منهم حزنوا لاختفائى دون ريب، خصوصًا أولئك الذين شغفوا بحكايات الآدميين التى كنت أرويها لهم حينما يدير لنا العجوز ظهره، متظاهرًا بانخراطه فى تأمل عميق، كان يقول لنا أن ندعه وشأنه فى تعبده البطريركى، كان يعتلى شجرة، يغمض عينيه ويتمتم بعض الدعوات، فيخيل إلىّ أنى أسمع كلامًا ينطق به ابن عم حقيقى للقرد ما دامت لزمجرة الشيهم وغمغمته تناغم بشرى عجيب، ما يثير فخرى حتى الآن أنى واثق من أن كثيرًا من رفاقى لم يفقدوا الأمل فى رؤيتى ثانية فى يوم من الأيام، كنت على قدر مفرط من الحذر يصعب معه أن أقع كالغرّير فى قبضة أطفال موسّكا، لا أستبعد أنهم يتذكرون أنى حدثتهم ألف مرة عن تلك الفخاخ التى نسخر منها، كانوا يقرّون بنفاذ بصيرتى وحاسة شمى وذكائى وسرعتى وحيلى، يعرفون أنى أتخلص منها بسهولة، لعل رفاقى إذن قد بدءوا يتخيلون يوم عودتى

بينهم، يوم مشهود يضحكون خلاله فى شدق العجوز، ويقولون له إن حماسه المغلف بالحكمة لم يكن سوى ذرّ رماد فى العيون، سوف يلقون على ألف سؤال عن اختفائى، وتسللى إلى عالم أبناء عمومة القرد، لا أخفى عنك أن الأسئلة الأولى التى قد يطرحونها علىّ سوف تتعلق بالوضع البشرى، علاقة الآدميين بالحيوانات، فرفاقى كانوا دائمًا يريدون أن يعرفوا هل أن أبناء عمومة القرد مقتنعون بأننا قادرون على التفكير، أى خلق فكرة والمضى بها إلى منتهاها، كانوا أيضا يريدون أن يعرفوا هل أن البشر واعون بالإساءة التى يحلقونها بالحيوانات، هل يدركون تكبرهم وتفوقهم المزعوم، كثير منهم فى الواقع لا يعلمون عن البشر غير الآراء المسبقة التى كان السائس يرويها لنا، لأنهم لم يطئوا قطّ أى قرية، ولا يرون البشر إذن سوى عن بعد، يصادف أن يتلووا من شدة الضحك، فيشفقوا على البشر لأنهم لا يستعملون أطرافهم العليا للتحرك من نقطة إلى أخرى، ويفضلون أن يفرضوا على أنفسهم التنقل بواسطة أرجلهم، لمجرد أن يُظهروا للأنواع الأخرى أنهم متفوقون عليها، كان رفاقى يصغون باهتمام إلى الصورة الساخرة التى يرسمها سائسنا عن الجنس البشرى، كان يصرح بأن الإنسان لا يمكن أن يُدافَع عنه، وأنه لا يستحق المغفرة، وأنه شرّ المخلوقات التى وجدت على الأرض، وأنه لا يملك إطلاقًا ظروفًا مخففة، وبما أن البشر يسوموننا شظف العيش، وأنهم معادون يصمّون آذانهم عن دعوتنا إلى تعايش سلمى، وأنهم لا يدركون ضرورة الوفاق إلا بعد معركة طويلة تشتت شملهم وتترك آثارا لا تمّحى من ذاكرتهم، ينبغى مهاجمة حتى أطفالهم الذين رأوا النور حديثًا، لأن "**صغار النمر لا يولدون بلا مخالب**"، كذلك يحدثنا سائسنا، وأنت ترى، عزيزى الباوباب، أنه لا يضمر الخير للجنس البشرى.

صار موتى فى نظر طائفتى حقيقة، وأحسب أن السائس هو الذى قرر أن ترحل الطائفة إلى مكان آخر فى أقرب وقت ممكن، لأنه، عزيزى الباوباب، حينما يدرك الموت أحدنا ننتقل فى الحال طوال يومين أو ثلاثة بحثًا عن موطن آخر، يدفعنا إلى هذه الهجرة الأليمة سببان، أولاً نحن نعتقد أن تغيير المكان هو الوسيلة الوحيدة لتجنب هواجسنا ومخاوفنا نظرا لخوفنا الشديد من العالم الآخر، لإيماننا بأنه ليس سوى كونٍ من المخلوقات المرعبة، والسائس يغنم من ذلك فرصة، ليشرح لنا أن الشيهم حين يموت يعود بعد أيام فى هيئة روح خبيث بين رفاقه الأحياء، فيتخذ حجم عملاق بأشواك واقفة، أطول وأمضى من رماح الصيادين، وحسب رأيه دائمًا، أشواك شيهم كهذا قادرة أن تلامس السحب، وتسدّ الأفق، وتمنع طلوع النهار، وكنا حينئذ نعيش فى خوف من هذا الشبح الذى قد يعود من مملكة الأموات لترويعنا، وحرماننا من النوم، واقتلاع أشواكنا الجميلة، وتهديدنا بأشواكه السامة، ولكن السبب الثانى الذى يدفعنا إلى الرحيل عقب موت أحدنا يعزى على الأرجح إلى غريزة البقاء، كنا على قناعة بأن الإنسان الذى قتل حيوانا فى مكان محدد سوف يغريه ذلك بالعودة إلى المكان نفسه، "**حيوان محترس يعادل اثنين**" يقول السائس حين لا يكفى الخوف من شبح الشيهم سيئ الطويّة لإقناعنا بضرورة الارتحال، وإن صادف أن استهنّا بقراره رغما عن تفزيعاته، يقول فى غموض : "**ثقوا بى، أنا مثل أخرس يجرى حتى تنقطع أنفاسه**"، ويستطرد على الفور "**وإن رأيتم أخرس يجرى، يا صغارى، لا تتساءلوا، اتبعوه لأنه لم يسمع الخطر، بل رآه**". لذينك السببين إذن ربما هجر جماعتى الموضع الذى نزلنا به منذ زمن معين، لم يتركوا أى أثر قد يقودنى إلى

موضعهم الجديد، وحتى لو فكر بعضهم فى إرشادى إلى مكانهم الجديد بطرق خفية، كترك جوزات نخل على طول الطريق مثلا أو أشواك على الأرض، نشر غائط أو إراقة بول هنا وهناك، تعليم جذع كل شجرة بخدوش مخالب، سحق رؤوس القصب، فذلك كله لن يفيد فى شىء، لأن السائس قد يتلف تلك العلامات، وأغلب الظن أنه اتخذ له مكانًا خلفهم لمراقبة الرحلة مراقبة أفضل، وتأنيب الأخباث، وخصوصا إزالة تلك الدلائل.

فى اليوم الخامس، حينما عدت إلى موضعنا كى أستريح قليلاً بعد اتصالى بالصغير كيباندى، لم أجد أحدا من طائفتى، كان كل شىء هادئا، والجحور فارغة، عندئذ فهمت أن السائس أمرهم بالهرب، وأنى بتّ فى عداد الأموات لدى أهلى، بدأت أجهش بالبكاء أمام ذلك الفراغ، كل حسّ فى الآجام يعيد إلىّ الأمل بأن أرى من جديد أحد رفاقى يقبل علىّ ليعانقنى، ويفرك أشواكه بأشواكى علامة على التلاقى، يمازحنى بتسميتى "الرشأ"، وعندما تناهى إلى سمعى صوت جعلت أشواكى ترفرف من شدة الفرح، ولكنه اندفاع، واحسرتاه، لم يدم طويلاً، أدركت بعدئذ أنه لم يكن سوى سنجاب نخل يتسكع، وقهقهته الساخرة تعكس كثيرا ما جرى، لم أفهم حتى اللحظة لماذا يكنّ لنا هواة الجوز النخلى مثل هذا الكره إلى حدّ يجعل ضرّاءنا عندهم سرّاء، لم أردّ طبعًا على تحرّشه، وهزئه الساذج، بقيت وحيدا ستة أيام، ولما كان اليوم السابع رأيت سنجابًا مسنّا فى الأنحاء، وبما أننا نستلطف السناجب على الأقل لأننا لم نتخاصم معها قط، سألته هل رأى طائفة من الشياهم تغادر الجهة قبل بضعة أيام، انفجر ضاحكًا هو الآخر، وأمعن فى تحريك عضلات وجهه بشكل متشنج وهو ما كنا نعيبه على بنى جنسه،

فالسناجب تميل عادة إلى الاضطراب دون موجب، وتقليب عيونها وتحريك خطمها وهزّ رأسها فى اختلاجات صرعية، وهو ما يعطى هيئتها مظهرًا مضحكًا للغاية، ولكن لاحظ أن تلك الاختلاجات كانت أحيانًا تنقذها من البندقية التى يصوبها نحوها الآدميون، لاحظت أنه يجرّ ذيلا مبتورًا، لعله نجا بأعجوبة من أحد فخاخ البشر، وأن الجرح لا يزال فاغرًا، وما كنت راغبا فى التوقف عند أسباب إصابته، قلت لك إذن، بعد ضحكة المجنون التى شفعها بسلسلة من الاختلاجات الهزلية، حكّ مؤخرته قبل أن يتمتم "كنا أرقبك، وأتساءل ما الذى يبكيك هكذا، لأنك تبحث عن أهلك، أليس كذلك، هه، فى الواقع لم ألمح أى شيهم يرود بالمكان منذ بضعة أيام، كأنه صار خلوا مما يؤكل وأن الجميع رحلوا، ولكن لا يهم، إذا لم يكن لديك موضع تعيش فيه فبإمكان طائفتنا احتضانك، وسوف أكون مسرورًا بتقديمك لرفاقى، خصوصًا وأن موسم الأمطار الذى يلوح قد يكون أشدّ بردًا وقسوة بالنظر إلى تلك السحب المنخفضة الثقيلة مثل كرش حمار، تعال معى، لا بد أن نتعاون، أن نمد لبعضنا البعض رِجْل العون، تفهم ما أعنى، هه"، لا أتصور أنى يمكن أن أشاطر السناجب حياتها، أتحمل خلجاتها وأشاركها جوزها وأحكم بينها فى خصامها لقاء لوزة عفنة، وأتسلق الشجر طوال اليوم، قلت له لا بهزة من رأسى، حاول إقناعى فتمسّكت برأيى، الموت خير لى من أن أهوى إلى هذا الحدّ، قلت فى نفسى، قال لى "من تحسب نفسك، هه، الكبرياء لا تمنح سكنا للمتشرد"، أجبته "سكن المتشرد كرامته"، فسكت، حدجنى قبل أن يردف "اسمع، يا صديقى ذا الأشواك، عرضت عليك اللجوء فرفضت، أريد بجد مساعدتك فى العثور على أقاربك، ولكننى مستعجل ورفاقى ينتظروننى منذ حين

بدأ يطول، هم أرسلونى للبحث عن بعض الجوز، أقصى ما يمكن أن أقول لك إن عائلتك انتقلت إلى الجهة الأخرى، وراءك" وأشار بخطمه نحو الأفق، هناك حيث تلتقى السماء بالأرض، وتتلامس الجبال فلا تبدو أكثر من كدس صغير من الحجارة". كنت أعرف أنه يستهزئ بى، وأنه يبتهج لرؤيتى على تلك الحال من الحزن، "أنا آسف، لا بد أن أذهب، أتمنى لك حسن العاقبة، وأن تمنحك كرامتك السكن "، قال، رأيته ينصرف دون التفات، نظرت إلى الأفق ثم إلى السماء، ومسحت دمعى، بقيت أراوح مكانى بضع دقائق، يلفنى الفراغ ويتملكنى إحساس بأن الصمت يركّز عينيه علىّ، عينين متواطئتين مع ارتحال رفاقى، كانت صورة طائفتى ماثلة أمامى، يتمثل لى السائس وهو يتحدّث، يتعبّد، يلهج بأوامر، فى تلك اللحظة سكبت دمعا أغزر، ثم تنفست بملء رئتىّ والأشواك منكّسة، وقلت فى نفسى "لا يهم، سأعيش وحيدا ابتداء من اليوم"، وبعد يومين، استأنفت مسيرتى نحو قرية سيدى الصغير تنهشنى الوحدة والكآبة.

كذلك، عزيزى الباوباب، هجرت عالم الحيوان لأضع نفسى فى خدمة الصغير كيباندى الذى تَمّت مسارّته مؤخّرا فى موسّكا، ذلك الطفل الذى سوف أتبعه فى ما بعد إلى سيكيبَمْبى، ذلك الطفل الذى لم أفارقه طوال سنوات حتى يوم الجمعة الماضى، حيث عجزت عن فعل أى شىء لتجنيبه الموت، أنا لا أزال متأثرًا، ولا أحب أن ترى الدموع فى عينىّ، سأولّيك ظهرى إذن حياءً وأستردّ أنفاسى قليلا قبل أن أواصل.

كيف باعنا بابا كيباندى مصيره

لم يقض سيدى يومًا واحدًا من حياته دون أن يستحضر تلك الليلة التى باعنا أبوه خلالها مصيره، فتفرض صورة المسارّة نفسها عليه، وتعود به الذكرى إلى موسّكا فى جوف الليل، حين لا يزال فى سن العاشرة، ليل مسكون بالبوم الصُّمّع والخفافيش، تلك الليلة التى أيقظه خلالها بابا كيباندى فى غفلة من أمه ليجرّه بالقوة إلى الغابة، وقبل أن يغادر الكوخ حضر الطفل كيباندى مشهدًا جعله يفرك عينيه مرارًا غير مصدّق، فقد لاحظ أن أباه كان ممدّدا قرب أمه وواقفًا بجانبه هو فى الوقت نفسه، أى أن اثنين من بابا كيباندى كانا يوجدان فى البيت، متشابهين مثل قطرتى ماء، أحدهما ممدد على السرير دون حراك، والثانى واقف يتحرك، والطفل بينهما، وقد تملّكه الرعب، يرفع عقيرته بالصراخ، ولكن الأب الواقف وضع يده على فمه يكتم صرخته ويقول "لم تر شيئًا، هذا أنا، والممدد جنب أمك هو أنا أيضًا، يمكن أن أكون فى الوقت ذاته أنا نفسى وأنا **نفسى الآخر** النائم، ستفهم ذلك عمّا قريب"، حاول الطفل كيباندى أن يهرب فأدركه الأب الواقف إثر خطوة واحدة "لا تستطيع أن تجرى أسرع منى، ولو هربت فسوف أطلق فى أثرك أنا نفسى الآخر"، نقّل الطفل كيباندى نظره بين والده الواقف

وهو نفسه الآخر، وانتابه إحساس بأنه يُختطف، وإنه يتوجّب عليه ريما إيقاظ والده، هو نفسه الآخر، ليهبّ إلى نجدته، إلا أنه تساءل هل هو والده الحقيقى، عندئذ تركه الأب الواقف يشبع فضوله قبل أن يهزّ رأسه بتأكيد، وذلك معناه أن النائم هو الذى يجب على الطفل التوجه إليه، فهو أبوه الحقيقى، لزم الطفل كيباندى الصمت كأنما فقَدَ صوته، فهزّ الأب الواقف رأسه من جديد وبشّ فى بسمة غامضة، ألقى سيدى الصغير نظرة أخيرة ملؤها اليأس على فراش والديه، وقد وضعت أمه يدها على صدر بابا كيباندى النائم، "أنا نفسى الآخر لن يستيقظ ما لم تتمّ الأمور كما يريدها أجدادنا، ولو يفيق الآن فلن يكون لك بعدها أب، تعال، الطريق طويلة"، أمسك الطفل من يده بقوة تكاد تخضّه، ظل الباب مواربًا، وغابا تحت جنح الظلام، لم يطلق الأب يد ابنه لحظة كأنه يخشى أن يهرب، كانت المسيرة تكاد لا تنتهى، مشفوعة بصياح طيور الليل، ولما وصلا أخيرًا إلى قلب الغابة والقمر يرقبهما بعين حيية، أطلق الأب يد سيدى الصغير، وهو يدرك أنه لم يعد يفكر فى الفرار لخوفه من الظلمات الذى يسكنه، عندئذ وسّع بابا كيباندى شبكة عارشات، واتجه نحو حقل خيزران حيث رفش قديم مخبّأ تحت كدس من الأوراق الميتة، والطفل لا يفارقه بعينيه، ثم عادا أدراجهما حتى بلغا فرجة يُسمع أسفلها قليلا خرير وادٍ، وبصوته المشروخ بدأ بابا كيباندى يشدو بأغنية، ويحفر الأرض ببراعة **النابشين**، سرّاق الأكفان الذين، بعد اقترافهم السرقة وتدنيسهم قبر الميت، يغسلون تلك الأكفان فى الوادى، ثم يطوونها فى كيس، ويبيعونها بأثمان باهظة فى القرى المجاورة حيث تقام الجنائز، كان بابا كيباندى يحفر، فتمزّق ضربات الرفش سكون الغابة، وبعد حوالى عشرين دقيقة، وهو ردح أزلى فى

نظر سيدى الصغير، ألقى الأب آلته على كوم التراب، وأطلق نفَس ارتياح، "حسنا، ها قد وصلنا، سيجيئك الخلاص عمّا قريب"، انبطح ومدّ يده داخل الحفرة فأخرج شيئًا ملفوفًا فى قطعة وزرة متسخة، اكتشف مطَرة وقدحًا من الألمنيوم، فى البداية خضّ المطَرة خضّات عديدة قبل أن يسكب شراب **المايَمفُومبْى** فى القدح، شرب جرعة وتمطّق، ثم ناول ابنه الآنية، فتراجع خطوتين، "ماذا تفعل، هه، هذا فى مصلحتك، اشرب، اشرب إذن"، أمسكه من يده اليمنى، "عليك أن تشرب هذا الْجَروع، إنه لحمايتك، لا تكن غبيّا"، كان الطفل كيباندى يحاول التملّص، طرحه أبوه أرضا ليشل حركته، ثم سدّ منخريه وجرّعه **المايَمْفومبْى**، بضع جرعات كانت كافية، فقد أحسّ الطفل كيباندى بدوار ثم خرّ على الأرض، نهض مترنّحًا تكاد تخذله رجلاه وهو مغمض العينين، كان السائل فى فمه له طعم نبيذ النخل العفن وحمأ المستنقع فى الوقت نفسه، والْجَروع يلهب حنجرته، وعندما فتح سيدى الصغير عينيه، أبصر طفلاً يشبهه، ما كاد يتبين ملامحه حتى توارى خلف أجمتين، "رأيتَه، هذا أنتَ نفسُك الآخر، هه، هل رأيته، هه"، سأل بابا كيباندى، "كان هنا أمامك، ليس وهما يا ابنى، أنت الآن رجل، أنا سعيد، سوف تواصل ما أخذتُه عن والدى الذى أخذه عن أبيه"، وكان الطفل كيباندى يصيخ بسمعه ناحية المكان الذى اختفى فيه ذلك الطفل، هو نفسُه الآخر، كان لا يزال يسمعه يسحق الأوراق الميتة فى اندفاعه اندفاعًا جنونياً تقريبًا، كأن أحدًا فى أعقابه، ثم خيّم الصمت، وأمكن لأبيه أخيرًا أن يتنفّس بعمق، لقد انتظر طويلاً لحظة الانعتاق هذه، تلك اللحظة التى يسدّد فيها دَينه، دَين النقل.

لم يكن للطفل كيباندى اتصالات متواترة بهو نفسه الآخر الذى كان يفضّل تعقّب خطواتى وحرمانى من النوم، كنت أسمعه يمشى على الأوراق الميتة ويجرى حتى تنقطع أنفاسه، ويتنفّس داخل الدغل، يكرع الماء من الوادى، ويصادف أحيانًا أن أجد أطعمة متراكمة قرب مخبئى، كنت أعرف أن هو نفسه الآخر لكيباندى الصغير مَن وضعها هناك، وكان ذلك مبعث فخرى، ثَمّة من يهتمّ بى إذن، ولعلنى كنت أحس فى تلك اللحظات أن ذلك يشدّ أزرى، سعيدًا بأنى ذو امتياز، ازداد وزنى وصارت أشواكى أمتن، صار يمكن لى أن أراها تلمع حينما تكون الشمس فى السّمْت، تعوّدت على لعبة التخبئة مع هو نفسه الآخر لسيدى الصغير، صار وسيطًا بيننا، وحينما يمر أسبوع أو أسبوعان دون أن أراه يداخلنى القلق، فأتجه بأسرع ما أمكن إلى القرية، ولا يهدأ لى بال إلا إذا لاح لى كيباندى الصغير يلعب فى فناء مسكنهم، فأعود إلى مخبئى هانئ البال، قضيت سنوات على هذا المنوال، وهو نفسه الآخر لسيدى الصغير يطعمنى، لم يكن ينقصنى أى شىء، ولا أشغل بالى بالتفكير فى الغد، كانت الأطعمة فى انتظارى عند مدخل ملاذى كلما أطللت خارجه، ولو تجاسر حيوان آخر على اختلاسها فإن هو نفسه الآخر

لسيدى الصغير يطرده رميا بالحجارة، ولأول مرة كان يمكن أن أتفق مع البشر فى أنى أعيش عيشة الكسالى.

لم نقم بأى شىء ملموس طوال مراهقة سيدى، كنا نتعلم العيش معًا، وننسّق أفكارنا، ونتعارف بشكل أفضل، وكنت أبعث بالرسائل إلى كيباندى الصغير عبر هو نفسه الآخر، وفى يوم، كنت أتسكع قرب ساعد نهر حين صادفته جالسًا على حجر وهو يولينى ظهره، لم أشأ أن أتحرك أو أحدث صوتًا لكى لا يلوذ بالفرار مرة أخرى، كان يتأمل العلاجيم والبط البرّى، تملكنى انفعال حارّ إلى حدّ حسبت معه أن كيباندى الصغير بحقّ هو الذى يدير لى ظهره الآن، تقدّمت بضعة أمتار فسمعنى، التفت بعد فوات الأوان، فقد لمحت سمات وجهه، وإذا كان قد أخذ كلّ شىء عن سيدى فإن الشىء الذى بدا لى غريبًا هو أن هذا الهو نفسه الآخر لكيباندى لم يكن له فم ولا أنف، كان له فقط عينان وأذنان وذقن طويل، وما كدت أعبّر عن ذهولى حتى فرّ هاربًا وارتمى فى ساعد النهر، وقد غطى هروبه انطلاق طيور الماء من بط وعلاجيم إلى الفضاء، لم يعد أمامى أى شىء، عدا الماء المضطرب، كانت تلك إحدى الصور النادرة التى رأيتها عن هو نفسه الآخر لسيدى الصغير، آخرها كانت حينما جاء ذلك المخلوق العديم الفم يعلمنى بوشك رحيل سيدى وأمه إلى سيكيبَمْبى، قبل موت بابا كيباندى بأيام قليلة.

كان كل شىء يجرى كما لو أن بابا كيباندى، وهو ينحدر إلى الشيخوخة، يعود إلى الطبيعة الحيوانية، لم يعد يقلّم أظفاره، وصار له خلجات جرذ حقيقى حينما يهم بالأكل، ويفرك جسده بأصابع قدميه، وأهالى موسّكا الذين كانوا يرون فى ذلك نوعًا من المزاح العديم الذوق، لعبة شيخ معتوه، بدءوا يتحيّرون، فقد صار للرجل العجوز أسنان طويلة حادّة، خصوصًا أسنانه الأمامية، وشعرات رمادية صلبة نبتت فى أذنيه، وبلغت حتى منبت فكّيه، وعندما يختفى بابا كيباندى فى حدود منتصف الليل، لا تتفطّن ماما كيباندى لذلك، وهى ترى هو نفسه الآخر لزوجها نائمًا جنبها على السرير، وكان سيدى الصغير يفاجئ حينئذ أسرابًا من الجرذان تروح وتجىء ما بين القاعة الرئيسية وغرفة أبويه، وهو يعلم أن أضخم تلك القواضم، ذلك الجرذَ ذا الذيل الثقيل والأذنين المنخفضتين والقوائم المقوسة، هو مثيلُ والدِه، ولا ينبغى بخاصة أن ينهال عليه ضربًا بالعصا، ولو أنه تسلّى ذات يوم بأن مارس على ذلك الحيوان العجوز أعمالاً قاسية، فقد ذرّ مبيد جرذان على قطعة عسقول وتركها عند مدخل الجحر الذى تخرج منه القواضم، ولم تمض ساعات قليلة حتى مات منها عشرة، عندئذ أسرع سيدى

الصغير يجمع تلك الجرذان الميتة ويلفها فى أوراق موز أثناء نوم والديه، وألقى بها خلف الكوخ، ولكن لشدة ذهوله، شدّه أبوه من أذنيه "إن كنت تريد موتى فخذ سكينًا واقتلنى فى وضح النهار، أنت اليوم ما أردتُ لك أن تكون، ونكران الجميل هو خطأ لا يغتفر"، ولم تعلم ماما كيباندى أكثر من ذلك، أما الأب وابنه فهما يعرفان عمّا يتحدثان.

ثم وقعت تلك الوفيات التى تكاثرت فى موسّكا، وفيات ما عادت تتباعد فى ما بينها، تتالت الأدفان حتى صار المرء يكاد لا يذرف دمعًا على ميت حتى يُنعى ميت آخر ينتظر دوره، لم يكن بابا كيباندى يحضر تلك الجنائز، وهو ما أثار تساؤلات داخل القرية حيث يعرف الناس بعضهم بعضًا، رأى عيون السكان تنصبّ نحوه، وصار الناس يغيرون طريقهم إذا صادفوه يمشى مشية جرذ، وكانت النسوة أيضًا يثرثرن حول هذا الموضوع على عدوة الوادى، والرجال الذين ينطقون اسمه فى كل تجمع داخل كوخ يحمى فيه الجدل، والأطفال الذين يبكون، يتعلقون بوزرة أمهم حالما يكون الرجل العجوز فى الأنحاء: علاوة على كلاب الباتيكى التى تأخذ حذرها بالنباح عن بعد أو عند باب صاحبها، صارت موسّكا كلها تتناقل بصوت واحد أن بابا كيباندى يملك شيئًا ما، كل جزئية من حياته وقع تشريحها تحت العدسة المكبّرة، بالمشط الدقيق، وهم الآن يعيبون عليه كونه لم ينجب عددا من الأطفال، إذ ليس له غير طفل واحد فى الوقت الذى ينحدر به العمر إلى أرذله، كان مستهدفًا فى كل واحدة من تلك الوفيات، فكيف كان الأمر مثلا مع أخيه الشقيق مَتابارى الذى قضى نحبه وهو يقطع شجرة فى الغاب والحال أنه أكبر قاطعى الخشب فى موسّكا، هه، صحيح أن ذلك الأخ غيّر طرق

عمله، وتزوّد بمنشار آلىّ لا بد من معرفة استعماله فى هذه الناحية التى ما زال الشجر يقطع فيها بالفأس، هل كان بابا كيباندى يغار من وسيلة العمل تلك، هه، هل كان يغبط حسن تصرف أخيه الذى يكسب رزقه من تلك الآلة بتأجيرها للناس، هه، ثم كيف كان الأمر فى وفاة أخته الصغرى مَنْيونْغى التى عُثر عليها جثة لا حياة فيها وعيناها مقلوبتان، عشيّة زواجها، هه، الجميع كانوا يعلمون أن معارضة بابا كيباندى تلك الزيجة بسبب مسألة الجهويات، "شَمالية لا يمكن أن تقترن بجنوبىّ، نقطة وانتهى الأمر"، كان يقول، وكيف كان الأمر كذلك مع مَتومونا، تلك المرأة التى أراد بابا كيباندى أن يتخذها زوجة ثانية هى التى تصغره بنصف سنوات عمره، هه، ألم تمت حينما اختنقت بعصيدة الذرة، وكيف كان الأمر مع مابيالا موزّع البريد وقد ارتاب من أنه يرود بماما كيباندى، هه، ولوباندا صانع الطّنطن(*) وكان يغبط حظوته لدى النساء، هه، وسَنْغا صانع الآجرّ الذى رفض أن يعمل لصالحه، هه، وديكامونا مرتّلة المآتم الجنازية التى لم تكن تحيّيه، والتى عيّرته بالساحر العجوز على رؤوس الملأ، هه، ولوبيالا أوّل ممرضة فى موسّكا تحمل شهادة، تلك الفتاة كانت فى نظر بابا كيباندى تهرف بكلام أجوف وتفاخر بشهادتها، هه، ونْكيلى أكبر فلاح فى الجهة، ذلك الرجل الأنانى الذى كان يرفض التنازل له عن قطعة أرض قرب الوادى، هه، كيف كان الأمر مع أولئك جميعًا ولم يكونوا من أفراد عائلته، أولئك الذين ماتوا الواحد تلو الآخر، هه، إذن، عزيزى الباوباب، كان الناس يحمّلون بابا كيباندى تلك الوفيات فيما كان هو يمدّ البصر إلى الأفق فى اطمئنان، وليس له حيلة فى تغيير مجريات الأمور، كأنما

(*) أو التام تام: طبلة صغيرة تستعمل فى إفريقيا السوداء. (المترجم).

يتزيّا بنفسه عمّا يسمّيه "**خصومات عظايا تافهة**"، وبما أن الناس ما عادوا يكلمونه، فقد انطوى داخل كبريائه، وأوصى ابنه وزوجته بأن يكفّا عن الحديث مع القرويين، وعن توجيه التحيّة لأحد، هو نفسه صار يبصق على الأرض كلما صادف أحد الأهالى، ويصم شيخ القرية بشتى النعوت، مرتش بائس لا يبيع الأراضى إلا لأفراد عائلته، ثمّ وقع ذلك الحدث الجلل، نزاع عائلىّ سوف يترك أثره فى ذاكرة أهل الشَّمال، تلك الخصومة التى نشبت بينه وبين أخته الصغرى، وهى الأخيرة، ولكن الجميع لا يعرفون بابا كيباندى معرفة جيدة، فقد عمد مرة أخرى إلى خلط الأوراق، وزرع بذرة الشكّ فى أذهان القرويين، واستطاع أن يرجئ ما بدا للناس ساعتها أنه نهاية وجوده على الأرض، بابا كيباندى هو وحده القادر على مثل ذلك الصنيع، صدقنى، يا عزيزى الباوباب، حتى الآن، أكاد لا أصدق ما جرى حين أتذكّر كيف مرّغهم جميعا فى الدقيق.

حلّت تلك المصيبة بموسّكا خلال موسم جافّ، كانت مياه نيارى خلاله تكاد لا تبلغ كعاب السابحين، عندما مالت الشمس إلى المغيب عُثر على جثّة نيانغى ـ بوسّينا فى العدوة اليمنى للنهر، كان بطنها منتفخًا ورقبتها متورّمة كأنها ماتت إثر خنقها من قبل مجرم عظيم اليدين، تلك الفتاة لم تكن سوى ابنة أخت بابا كيباندى، أخته الصغرى إيتاليلى التى سأسمّيها هنا الخالة إيتاليلى كما يدعوها سيدى نفسه، وكانت المراهقة نيانغى ـ بوسّينا قد جاءت صحبة أمها لقضاء العطلة فى موسّكا من قريتهما التى تبعد بضعة كيلومترات، زعمت الخالة إيتاليلى أن ابنتها لا يمكن أن تموت غرقًا، كلاّ وألف كلاّ، فقد ولدت على عدوة أخطر واد فى البلاد، وادى لوكولا، وقضت طفولتها فى الماء، فهى إذن مسألة مريبة، وكما كان متوقّعًا

ورد ذكر اسم بابا كيباندى، وهددت الخالة إيتاليلى بأنها لن تغادر موسّكا ما لم يُمَط اللثام عن غرق ابنتها، ومع تصاعد الضغط، تركت بيت أخيها واستجارت ببعض صديقاتها، ولم تغادرها إلا يوم تقرّر أن تعاد جثّة المراهقة إلى سياكى، القرية التى تعيش فيها الخالة إيتاليلى مع زوجها، هذه المرة صار بابا كيباندى يسمع كلمة "ساحر" كلما أطلّ من كوخه، ووُصِم بـ"الجرذ الموبوء"، لم يتركوا له فرصة ليقول رأيه، كان يودّ لو تحدّث إلى أخته ليبيّن لها أنه يمكن أن يُتّهم بكل شىء ما عدا أكله ابنة أخته، وعندما أقول أكله ينبغى أن نفهم، عزيزى الباوباب، أن ذلك يعنى وضع حدّ لحياة فرد بوسائل عصيّة عن إدراك أولئك الذين ينكرون وجود عالم موازٍ، خصوصًا أولئك البشر الجاحدين، عندئذ، وجق الشيهم، يوم دفنِ نيانغى- بوسّينا فى سياكى، كان الناس ينتظرون بابا كيباندى برماح مسمومة، كانوا يفكرون فى تسفيده أمام أهالى تلك القرية التى تهيّأ لزيارتها للترحّم على روح ابنة أخته، ثم غيّر رأيه فى آخر لحظة، فقد علم جرذه الهرم الذى أرسله لجسّ النبض بما يحاك ضدّه، فخ كبير أعدّته الخالة إيتاليلى بالاشتراك مع أشخاص معيّنين من سكان سياكى وموسّكا، والنتيجة أن الخالة إيتاليلى، بعد أسبوع واحد من الدفن، ظهرت فى موسّكا باكرًا مع وفد من أربعة رجال، وخاطبت بابا كيباندى بقولها صراحة "أنت الذى أكل نيانغى - بوسّينا، أنت الذى أكلها، الجميع يعرفون ذلك، الجميع يقولونه، يجب أن تعترف لى وعيناك فى عينىّ"، فنّد بابا كيباندى التهمة، "لم آكلها، كيف يمكن أن آكل ابنة أختى، هه، لا أدرى حتى كيف يؤكل الفرد، الصغيرة ماتت غرقًا، نقطة وانتهى الأمر". ورفعت الأخت صوتها، "إن كنت رجلاً بحقّ، فلتأتِ معنا إلى ليكانا، وسوف

يفحمك الكاهن التيمى[1] تَمْبى ـ إسّوكا أمام هؤلاء الشهود الأربعة الذين برفقتى، لقد اخترتهم من أربع قرى مختلفة، بل إن أحدهم من موسّكا"، وأمام ذهول الجميع، ربما أيضا بسبب حشد الناس الذين بدءوا يلتفّون حولهم، لم يُبدِ بابا كيباندى أىّ مقاومة، انتعل حذاءه المطّاط وارتدى قميصًا طويلاً فضفاضًا وقال فى تحدّ "ليكن، هيا بنا، أنتِ تضيعين وقتك يا أختى"، ردّت عليه الخالة إيتاليلى "لا تدعُنى أختك بعد اليوم، أنا لست أختا لآكل".

إذا كان الشهود الأربعة الذين قدموا مع الخالة إيتاليلى قد اختيروا من أربع قرى مختلفة، فلأن التقاليد تقضى بذلك حرصًا على الحياد وصدق الكلام الذى سوف ينقله كل واحد منهم إلى قريته، سارت المجموعة الصغيرة نصف يوم حتى ليكانا، حيث يسكن الكاهن التيمى الشهير تَمْبى ـ إسّوكا، وهو عجوز ضرير منذ ولادته، ذو رجلين هزيلتين ولحية تكنس الأرض كلما حرّك رأسه، يقال إن المسئولين فى هذه البلاد يأتونه، ويجلّون علمه المختص بالأشباح، كان لا يغتسل أبدًا حتى لا يفقد قدراته، ويجرّ أسمالا حمراء ويقضى حاجته جنب سرير القصب الذى ينام عليه، وهو إلى ذلك قادر على ترويض المطر والريح والشمس، ولا يقبل جزاء إلا بعد النتيجة، بالغورى تحديدًا[2]، العملة التى كانت رائجة حينما كان هذا البلد مملكة، فلا ثقة له بالعملة الوطنية، هو يعتقد أن العهود لم تتغير، وأن العملة الرسمية خدعة، وأن العالم يتألف من ممالك، لكلّ مملكة كاهنها التيمى، وأنه أكبر الكهنة جميعًا، ما إن يصل أحدهم أمام كوخه المقام على هضبة حتى يرسل ضحكة حانقة

(١) كاهن يمارس عبادة الأشياء المسحورة. (المترجم).

(٢) نقود صدفية كانت رائجة فى إفريقيا السوداء.

تجمّد زوّاره، ثم يشرع فى شرح ماضى الزائر بتفاصيله، فيذكر بدقة تاريخ مولده ومكانه، اسمَىْ أبيه وأمه، ويكشف له عن سبب مجيئه، ثمّ يرجّ الأقنعة المرعبة المعلّقة فوق رأسه والتى يتواصل معها، هذا الرجل سوف يفصل بين والد كيباندى وخالته، لقد حاول الشهود الأربعة بكل الطرق إصلاح ذات البين بين الأخت وأخيها اللذين لم يتبادلا كلمة طوال عبور الغابة، كانت المجموعة قد وصلت إلى مداخل ليكانا عند الزوال.

سكان ليكانا، عزيزى الباوباب، متعوّدون على الحركة المستمرة للناس الذين يقصدون الهضبة لاستشارة تَمْبى- إسّوكا، عندما سمع الكاهن وقع أقدام الزوّار صاح من داخل كوخه الذى يوشك أن يتداعى، "أنتم، أيها الناس، ماذا جئتم تفعلون عندى، هه، تَمْبى- إسّوكا لا ينظر فى القضايا الصغيرة التى يمكن أن تحلّوها فيما بينكم، لا تزعجونى بلا موجب، لست فى حاجة إلى غواريكم، ثم إن المذنب لم يكلّف نفسه المجىء، أرى الماء، نعم، أرى الماء، أرى فتاة تغرق، هذه الفتاة هى ابنة أخت رجل عجوز تتهمه امرأة، إن ألححتم أو لم تصدقونى فادخلوا، على مسئوليتكم"، وبما أن الخالة إيتاليلى كانت مصمّمة كأشدّ ما يكون التصميم، دلف الجميع إلى الكوخ، لم تكن الروائح العفنة هى التى نفّرت القادمين الستّة، وإنما تلك الأقنعة التى بدت متكدّرة من مكابرة أولئك الغرباء وجسارتهم، كان نظر تَمْبى- إسّوكا نديّا ومُطفَأ، كان يجلس على جلد فهد، ويحرك سبحة مصنوعة من عظيمات أصَلَة(*) يتصدّر رأسُها مدخل الكوخ، جلس الزوار على الأرض، وبدا الكاهن غارقًا فى أفكاره وهو يتمتم "يا عصابة الأغبياء، لقد نبّهتكم إلى أن الجانى ليس معكم، لماذا إذن

(*) أو بواء: ثعبان كبير من فصيلة الأصلّيات. (المترجم).

دخلتم كوخي، هه، أنتم تشكّون في كلام تَمْبى ـ إسّوكا أم ماذا، هه"، جثت الخالة إيتاليلى على ركبتيها وجعلت تنشج عند قدمى الكاهن، وتكفكف دمعها بطرف وزرتها المربوطة حول خصرها، دفعها الكاهن عنه "لنكن واضحين، هذا المكان ليس مكانًا للدموع، ثَمّة مقبرة صغيرة أسفل الهضبة، ولن تجدى مشقّة فى العثور على جدث يسعده بكاؤك"، وبرغم ذلك غمغمت الخالة إيتاليلى " تَمْبى- إسّوكا، موت ابنتى لم يكن موتًا عاديّا، ما هكذا يموت الفرد، أتوسّل إليك، انظر جيدًا، أنا على يقين من أنك سوف تساعدنى، علمك هو أكثر ما يُخشى فى هذا البلد"، وأجهشت باكية مرة أخرى برغم ضجر الكاهن، "اللعنة، اخرسى ، قلت لك، أتريدين أن أطردك، هه، أتريدين أن أطلق جيشًا من النحل على مؤخّرتك، هه. ما هذه الحكاية، من تظنّيننى، هه، ألم تفهمى بعد أن العجوز الموجود هنا والذى تتهمينه بتلك المصيبة ليس من أكل ابنتك، هه. كم مرّة سأقول لك ذلك، يا للفجور، والآن ما دمت تلحّين فى معرفة الحقيقة، فسأكشف لك عنها لأنى أرى كل شىء، وأعرف كل شىء، ولكى أقنعك ببراءة هذا الرجل الموجود هنا، ستخضعون كلكم لاختبار سوار الفضّة، تلك غلطتكم، لقد حذّرتكم، سأمنحكم ثلاثين ثانية مهلةً للتفكير قبل أن أقرّر إجراء الاختبار أم لا.

لن تصدق ذلك، عزيزى الباوباب، لقد قبل بابا كيباندى الخضوع لاختبار سوار الفضّة فيما راح أولئك الذين يعتبرون أن ليس لهم ما يعابون عليه يفكّرون مليّا قبل الموافقة، أوّلا لأن تَمْبى- إسّوكا كان أشدّ عمى من الخلد، ثانيًا لأن الاضطراب يمكن أن يحرّف نتيجة الاختبار، بابا كيباندى لن يتراجع، أما الخالة إيتاليلى فقد كفّت عن البكاء فجأة وبدت أنها تهلّل مسبّقا لرؤية أخيها يُدان أمام عيون

الشهود الأربعة، كانت النار تنير الكوخ، وتطقطق مثل الحرائق التى تتلف الأدغال فى موسم الجفاف، وبدت الأقنعة تحرّك شفاهها الهدلاء، وتهمس للكاهن بعبارات سحرية كان يجاوبها بهزّات متوترة من رأسه، وبدأ الدّخان يشوّش ملامح الزوّار، صاروا يسعلون تباعًا، كانت رائحة زنخ ثم مطاط محترق تخنق أنفاس الحاضرين، وعندما زال الدخان أوقد تَمْبى- إسّوكا النار تحت قِدر مملوءة بزيت النّخل، وألقى فيها بسوار من الفضّة، ترك الزيت يغلى طويلاً قبل أن يغطّس يده داخل الإناء بلا تردّد، فسحب السّوار دون أن يحترق، ولوّح به أمام الحاضرين المشدوهين، ثم أعاده إلى القدر، "والآن، جاء دورك سيدتى، عليك أن تفعلى الشىء نفسه، جِدى السوار فى هذا الزيت الفائر"، بعد لحظة مراوغة، غطّست الخالة إيتاليلى يدها فى القدر، فأخرجت السوار وهى تكاد تهتف بالنصر، مما طمأن الشهود فأتوا الأمر نفسه بنجاح، التفت الكاهن عندئذ إلى بابا كيباندى، "حان دورك، جعلتك آخرهم لأنك أنت الآكل المزعوم"، فلبّى المطلوبَ ظافرًا تحت أنظار الخالة إيتاليلى الذاهلة، فيما كان الشهود الأربعة يركّزون أعينهم، مشدوهين، على المتّهِمة، قال الكاهن "الشهود الأربعة والرجل المتّهَم ظلما يغادرون الكوخ، وأنت، سيدتى، سوف أكشف لك عمن أكل ابنتك"، بقيت الخالة إيتاليلى وحيدة فى مواجهة الأقنعة التى بدت مشمئزّة، والكاهنِ المغرق فى تأمّل يكاد لا ينتهى، مغمض العينين، ولَمّا فتحهما انتاب الخالة إيتاليلى ظن أن الكاهن ليس أعمى، ثبّت نظره فى عينيها، وأطلق نباحًا مثل كلب الباتيكى، فانطفأت النار فجأة، وراح يعدّ عظيمات مسبحته، ويتمتم نشيدا لم تفهمه الخالة إيتاليلى، وهو يقلب عينيه، بلا حياة هذه المرة، ثم قبض بسبّابته وإبهامه على أكبر عُظَيم منها،

فداعبه بعصبية، قطع شدوه فجأة، فأمسك الخالة من يدها اليمنى وسألها "من هو إذن هذا الشخص الذى يدعى نْكويو ماتيتى والذى لا أكفّ عن رؤيته خلال تأملى، هه"، انتفضت الخالة إيتاليلى، ثم تمالكت فى الوقت المناسب قبل أن تغمغم " نْكويو ماتيتى، قلتَ نْكويو ماتيتى، هه" سألت، "لقد سمعتِ جيدًا، من هو هذا الشّخص، هه، إنه بالغ القوة، ويحجب عنى وجهه، ولا أستطيع سوى أن أفكّ حروف اسمه، هذا الشخص محاط بعدد من الرجال، يبدو أنهم يتخاصمون، يهدّدون بعضهم بعضًا بالموت"، قالت الخالة إيتاليلى محترزة فى تلعثم " لا يمكن أن يكون هو، إنه زوجى، والد الفقيدة ابنتى، تريد أن تقول إنه هو الذى، أوه، لا، غير ممكن، أقول لك إنه لا يمكن أن يأكل ابنته لحمه ودمه، غير معقول"، "هو الذى أكل البنت، إنه عضو فى جمعية ليلية فى سياكى قريته، وفى كل عام، يرفع أحد الأعضاء لطائفة المطّلعين على السرّ شخصًا عزيزًا عليه قربانًا لها، فى هذه السنة، جاء دور زوجك، وبما أن مثيله المضرّ كان تمساحًا، فقد ماتت بالماء، حملها إلى التيار حيوان أبيها، والآن لكِ الكلمة الأخيرة، إما أن أدعو الشهود الأربعة وأخاك الذى تتهمينه، وإما أن تختارى الصّمت وتحفظى إفشائى السرّ لكِ وحدك"، ومن دون أن تأخذ مهلة للتفكير اقترحت الخالة إيتاليلى "أريد أن تعمل عملا ضدّ زوجى، أريد أن تلقى عليه أذى من السّحر، أريد أن يَهلَك قبل وصولى إلى سياكى، إنه سافل، نذل، سحّار"، كاد تَمْبى- إسّوكا أن يستعيد البصر من شدّة غضبه، "من تظنّيننى، هه، أنا لم ألق قطّ أذى من السحر على الناس، أنا أكتفى بالعرافة، بمساعدة الناس الذين تواجههم مشكلة، ما عدا ذلك فلتذهبى لعيادة أوغاد قريتكم ودجّاليها، أنا لست من هذا الصنف،

من تظنّيننى، هه"، "أرجوك يا تَمْبى- إسّوكا، على الأقل لا تقل شيئًا للذين ينتظرون خارج الكوخ، لا أريد خاصة أن يعلم أخى بذلك، لقد اتّهمته ظلمًا بسبب أهالى موسّكا خاصة، هم يقولون إن له جرذًا مثيلَه المضرّ، إذن أنت تتفهّمنى، هه، ضع نفسك مكانى"، نهض الكاهن، فالحصةُ بالنسبة إليه انتهت، وقبل أن يُرى الخالة إيتاليلى الباب، ختم بقوله : "تلك مشكلتك، لن أقول شيئًا لأحد، تَمْبى- إسّوكا قام بمهمته، لا تنسى أن تغلقى الباب وراءك وأن تتركى بعض الغوارى للسّلف فى السلّة الموجودة فى المدخل"

غادرت المجموعة ليكانا، كان الشهود الأربعة ينهالون على الخالة إيتاليلى بالأسئلة، وهى خرساء مثل سمكة الشبّوط، وبما أنها بدت لا تزال على حقدها على بابا كيباندى الذى كان يستعرض بسمة ارتياح، فقد آثر أخوها أن يمضى فى الاتجاه المعاكس، سار طوال ساعتين، دون أن يلتفت خلفه لحظة، ولم يفرج عن فرحه إلا بعد ذلك بكثير، حيث رفع عقيرته بالغناء، كأنه مجنون، لقد نجا بأعجوبة، لم يستطع أن يمنع نفسه من استحضار مشهد الاختبار، اختبار سوار الفضة الذى برّأه، فانفجر ضاحكًا، تمتم بعض الكلام، كأنه يشكر شخصًا ما، ثم أوغل فى الغابة، أجال البصر حوله، لم يكن ثَمّة أحد، ولا حتى عصفور، عندئذ شمّر قميص البوبو الطويل حتى مستوى الكليتين، وأقعى كأنه سيقضى حاجة، أرسل نفسًا طويلاً، ثم كتم نفَسه، وراح يدفع ويدفع، حتى سُمع ضراطه، تلته جوزة نخل خرجت من أسته، تناولها بيده، قلّبها ثم قرّبها من أنفه، وتبسم قائلا "عزيزى تَمْبى- إسّوكا، أنت فعلا أعمى"، بابا كيباندى كانت له فعلاً أسباب وجيهة كى يسخر من الكاهن الشهير، فقد صار أول رجل يغافل تَمْبى- إسّوكا، ولكنه يخطئ إذ يفخر بنصره سريعًا.

القول إن الكاهن تَمْبى- إسّوكا تاه، يا عزيزى الباوباب، دليل على أننا لا نعرفه معرفة جيدة، فقد نزل بعد شهرين بموسّكا أمام ذهول سكّانها، غمر الخوف الأكواخ، واختفت الحيوانات الأليفة لمجرد رؤيته، قال إنه جاء يعلن خبرًا، وسرعان ما كثرت المزايدات، وتساءل الناس خاصة كيف استطاع هذا الرجل الضرير أن يهتدى إلى طريقه وحيدًا وسط الأدغال، ثم قالوا إن عماه ليس سوى مظهر خادع فهو يستطيع أن يرى كل شىء، استقبله شيخ القرية كما يُستقبل الأعيان، فاعترف الكاهن أن علمه المختص فى الأشباح خذله لأول مرة، وأثبت أن بابا كيباندى خطر على القرية كلّها، وكشف عن ممارساته، متّهمًا إيّاه بأنه وراء أغلب الوفيات فى موسّكا، وبيّن أنه أكل حتى الآن أكثر من تسعة وتسعين شخصًا، "جئت من أجلكم، جئت أخلّصكم من هذا النحس، لأن هذا الرجل هو أخطر رجل فى المنطقة كلها، ولن يأكل الشخصَ المائة"، قال، ولكى يدعم كلامه راح يسمّى من الذاكرة، حسب الترتيب الهجائى، أسماء الضحايا التسع والتسعين، من بينها واحدة فقط كانت تسكن خارج موسّكا، الفتاة نيانغى ـ بوسّينا، وشرح تَمْبى ـ إسّوكا ظروف موتها، كان تبادُلا بين بابا كيباندى وأحد المطّلعين على السرّ فى قرية سياكى هو زوج الخالة إيتاليلى، فى الحقيقة بابا كيباندى هو الذى رتّب كل شىء، وهو الذى أكل ابنة أخته، "جئت أخلّصكم من هذا الشيطان بابا كيباندى، هذه أوّل مرّة أغادر فيها كوخى وأترك أقنعتى وحيدة، وليكن واضحًا أنى لست من يضع حدًّا لحياة هذا الرجل، تَمْبى ـ إسّوكا لا يقتل أبدا، تَمْبى ـ إسّوكا يخلّص، هذه المسألة تعود إليكم بالنظر، حسبُكم أن تقبضوا على مثيله المضرّ المختفى الآن فى الغابة لأنه يحس أن أجلَه يقترب، لقد كبّلت حركته

بفضل قُدراتى، ولو ألقيتم القبض على ذلك الحيوان فسوف تفعلون ما تشاءون بسيّده، لن تؤنّبكم ضمائركم على قتله لأنكم ستهاجمون حيوانا"، ودلّهم بالتدقيق إلى المكان الذى يتخبّأ فيه الجرذ الهرم، شكروه ووهبوه حمارًا وديكًا أحمر وكيسًا من الغوارى، رفض الكاهن قضاء الليلة فى القرية، كان ينوى الرجوع إلى ليكانا فى عزّ الليل، حاول شيخ القبيلة استبقاءه "قضّ الليلة هنا، أيها الجليل تَمْبى - إسّوكا، الوقت ليل، ونحن حريصون على حياتك وعلى حكمتك"، أجاب الكاهن "كلامك أيها الشيخ المحترم يثلج صدرى، ولكن لتعلم أن ضوء النهار لا يعنى شيئا بالنسبة إلينا نحن معشر العميان، لا بدّ من الرجوع إلى كوخى الآن، أقنعتى فى انتظارى، لا تشغل نفسك بأمرى ، مع الشكر على هذه الهدايا"، أمسك الديك الأحمر من رجليه، ربط كيس الغوارى إلى ظهر حماره، وعاد أدراجه إلى موطنه.

من الغد، دعا شيخ القبيلة إلى عقد جلسة استثنائية حضرها القدامى، واتُّخِذ قرار عاجل بالقبض على بابا كيباندى فى غفلة منه، وأوكلت لدستة مَن الرجال الأقوياء مهمّة مطاردة الجرذ الهرم فى الغابة، تسلّح هؤلاء الرجال ببندقيات من عيار ١٢ مم ورماح مسمومة، طوّقوا المنطقة التى ذكرها تَمْبى - إسّوكا، عزلوا جرذان الأنحاء المجاورة، وعثروا عند ساق عَنْدَمٍ هندىّ على جحر جرذان تغطى مدخله أوراق ميتة، حفروا، حفروا لمدة نصف ساعة قبل أن يحصروا الحيوان المسنّ الذى كان يجد صعوبة فى التحرك، لعله أدرك أن نهايته أزفت، وأنه لن ينجو هذه المرة، رفع مشفريه، أبدى قواطعه مهدّدا، وسائل عنبرىّ اللون ينساب من شدقيه، فما أخاف أحدًا، بالعكس لقد أثار بذلك شفقتهم، عندئذ رفع أحد الرجال

رمحه ورماه به فغضب الحيوان وقد انبجس منه سائل فى بياض نبيذ النخل، فيما انهال عليه رمح ثان طيّر مخّه شظايا، وكأن ذلك لم يكف الرجال الاثنى عشر إذ أقبلوا يفرغون رصاص بندقياتهم فى جثة الحيوان الذى فارق الحياة منذ زمن.

عندما عاد الرجال إلى القرية، فوجئوا بنعى بابا كيباندى، لم يذهب إلى كوخ الميت أحد، كانت جثة الرجل العجوز ممددة فى الصالون، العينان جاحظتان، مقلوبتان، واللسان أزرق نيلىّ ينحدر حتى أذنيه، وقد بدأ جسده يتصلّب، ورائحة عفنة تروج فى الأنحاء، وفى آخر العشىّ، والظلام ينحدر، لفّت ماما كيباندى وسيدى الصغير الجثة فى سعف النخل، وحملاها بعيدا إلى الغابة، دفناه فى مزرعة موز، وعادا فى احتراس واحتشام إلى القرية، فأعدّا بعض ما يحتاجان إليه، ورحلا عند الفجر دون أن يتركا أثرا، سارا يتبعان الأفق حتى قادتهما أقدامهما إلى هذا المكان سيكيبَمْبى حيث أوجد، فقد سبقتهما إليه منذ أن رأيت هو نفسه الآخر لسيدى وقد جاء يعلمنى بوشك الارتحال عن تلك القرية الشمالية، عندئذ علمت أنه ينبغى التوجه إلى الجنوب، نحو قرية تدعى سيكيبَمْبى، كذلك صرنا رغما عنّا من سكان هذه القرية، قرية مضيفة كان يمكن أن نحيا فيها مع ذلك حياة عادية.

كيف لحقت ماما كيباندى

ببابا كيباندى إلى العالم الآخر

أمر غريب أن أرى سيدى الصغير يسحق الجذور بثناياه الأشد تقطيعا من ثنايا إنسان عادىّ، بل إنى تساءلت هل سيقضى مراهقته فى التغذى بالسيقان الأرضية، كان قد انتهى به الأمر إلى قبول موت أبيه، وأن العيش فى سيكيبَمْبى مع ماما كيباندى سيفتح لهما آفاقًا أخرى، فالبعد عن الشّمال مكّنهما من نسيان ذلك الماضى، صورة بابا كيباندى وقد قضى عليه أهالى القرية بمساعدة الكاهن تَمْبى ـ إسّوكا، كان واضحا أن ماما كيباندى وسيدى الصغير صارا يتوقان إلى حياة أفضل، ما زلت أذكر تلك الفترة التى شهدت حلولهما هنا، استقبلهما الناس كما يستقبل الغرباء، فتحوا لهما أبواب سيكيبَمْبى، كانا يسكنان كوخًا من ألواح الأوكومة(*) يعلوها سقف من القشّ، لنقل إنهما إن كانا يعيشان فى آخر مساكن القرية، فذلك لأنه لم يعد ثَمّة أراض شاغرة وسط سيكيبَمْبى، وكان لا بدّ لهما من شغل، فأما سيدى الصغير فقد أصبح صانعًا فى هيكلة البناء لدى رجل عجوز دفعت له ماما كيباندى مبلغًا رمزيًا من المال، وصار للفتى كيباندى بمثابة الأب، كانوا يدعوه "بابا" ولا يجرؤ أن يناديه باسمه الحقيقى ماتيونغو". هذا الرجل يذكره بأبيه، ربما

(*) شجرة ذات خشب وردى يستعمل فى النجارة. (المترجم).

بسبب قامته المقوسة ومشيته التى تشبه مشية حرباء، فيما رأى بابا ماتيونغو فى سيدى شابًا ذكيًا وميالاً إلى المعرفة، فقد تمكن كيباندى بسرعة من حذق دقائق هيكلة البناء، ولم يكن العجوز مضطرًا إلى أن يعيد عليه الشىء نفسه عشر مرّات، بالرغم من أنه كان يرتاب من هذا الصانع الذى، وإن كان يعمل بتعليماته حرفيًا، يثير استغرابه كل يوم، كان الفتى يراجع الطرق البالية لبابا ماتيونغو، ويتسلق السقوف فى خفة فريدة، وازدادت حيرة العجوز يوم أجبره المرض على تفويض إعداد هيكل من الخشب بإحدى الضيعات لسيدى، فقد استطاع الفتى كيباندى أن يصنع زوايا المسنَّم، وتلويحات[1] وروابط لدعامة السّقف وحاملات روافد القرميد ومؤردزات[2] وعارضات رئيسة لرأس القبّة وهرم السقف ونصف الهرم، وهو ما لم يكن فى مقدور أىّ صانع، بل إن سيدى هو الذى أطلع عرفه العجوز على كيفية بناء هيكلة معدنية، ولم يكن بابا ماتيونغو يعرف غير هياكل الخشب، كل شىء كان يتم على ما يرام بين الآدميّين، بل إنى أنا الذى أثار شكوك بابا ماتيونغو، وأنا واثق من أنه مات وهو مقتنع بأن صانعه كان له شىء ما، ذلك أنى سمحت لنفسى ذات مرة بالطواف وراء الورشة، كان سيدى منهمكًا فى نشر خشبة، سمعت بابا ماتيونغو يقدم بخطو متردد، فك أزرار سرواله وراح يبول على حائط الورشة، وحانت منه التفاتة فالتقى نظره بنظرى، تناول حجرًا كبيرًا ملقى تحت قدميه وكاد يردينى، فقد وقع الحجر على بعد بضعة سنتمترات منّى، وبدا أن العجوز ترك شبابه ومهارته فى الرماية خلفه، أطلقت رجلىّ للريح باتجاه

(١) ج. تلويحة: صنيع مغطى بشرائح أو بألواح خشبية رقيقة. (المترجم).

(٢) ج. مؤردزة: مثبتة ألواح الأردواز فى ما بينها. (المترجم).

الوادى، وبعد لحظات كان العجوز يسرّ لسيدى أن شياهم سيكيبَمْبى ما عادت تخاف البشر، وأن عددها كثر، ولا بدّ للصيادين من الانصراف إليها، وأنه سوف يقتل واحدًا منها ويأكله مع موزات خضر، يومئذ أقسم أنه سوف يصنع فخّا خاصًا بذلك، توقف كيباندى عن نشر الخشبة وردّ بصوت هادئ "ما رأيته يا بابا ماتيونغو ليس شيهمًا من شياهم سيكيبَمْبى، صدّقنى"، ارتاب العجوز فجأة وحدجه بنظرة، هزّ رأسه وأنزل يديه على طول جسده قبل أن يقول فى تسليم "فهمت، فهمت يا ابنى كيباندى، فهمت، لقد ساورنى بعض الشكّ، ولكنى لن أقول شيئًا لأحد، على أية حال لم أعد سوى حطام، نفاية، لا أريد مشاكل مع الناس قبل أن أغادر هذا العالم ما دمت سأقضى نحبى عمّا قريب.

بعد سنوات، وقبل أن يغادر هذا العالم نهائيًا، ترك بابا ماتيونغو لسيدى عُدّة عمله، فانتاب كيباندى إحساس بأنه فقد أباه الحقيقى للمرة الثانية، كان عمره آنذاك سبعة عشر عامًا، وبرغم صغره لم تعد للسقوف أسرار بالنسبة إليه، صار أمهر حرفىّ فى الجهة، له يرجع الفضل فى إنشاء أغلب هياكل الأكواخ الجديدة بسيكيبَمْبى، وعند اللزوم، يوم حفل الموتى فى العادة، كان يزور المقبرة للترحم على روح بابا ماتيونغو، كنت أراه يذرف الدمع كأن الميت والده الذى أنجبه، كنت على بضع مئات من الأمتار من المقبرة، كنت أعلم أيضًا أن الضجيج القادم من الخلف مصدره هو نفسه الآخر لسيدى، ولا ألتفت مخافة أن تقع عيناى على ذلك المخلوق عديم الفم، فيما هو يزداد انفعالا شيئًا فشيئًا، كان ينام فى الورشة، ويتباكى على طول الوادى، يتسلق الأشجار، أتساءل أحيانًا كيف يتدبر أمره فى الأكل وهو لا يملك فما، وبما أنى لم أفاجئه قطّ يتناول ما يطفئ جوعه، وصلت إلى خلاصة مفادها أن سيدى يأكل عوضًا عنه، أو أن هذا نفسه الآخر يقتات من فتحة أخرى، أتركك تحزر ما هى، عزيزى الباوباب.

المسكينة ماما كيباندى تكون قد نسجت طوال اثنتى عشرة سنة حُصرا كانت تبيعها للسكان، كان نشاطًا رائجًا، وفى أيام السوق

بالقرى المجاورة، مثل لوبولو وكيماندو وكِنْكوسّو أو باتاليبِى، كانت تذهب هى وابنها لعرض بضاعتها، وكان كيباندى يقضى عطله فى أماكن نائية قرب صديقات ماما كيباندى، وهن بائعات مثلها، فيتركنى وحيدًا صحبة هو نفسه الآخر، ولم أكن مرتاحًا تلك الغيابات التى قد تهدّد انسجامنا، لم أكن أغادر مخبئى، أكتفى من الغذاء بأطعمة كان هو نفسه الآخر يجيئنى بها، كانت الأيام والليالى تمضى على هذا النحو، وأفكارى مشدودة إلى كيباندى، ليس لى ما أخشاه فى الواقع، فقد كنت على علم بحركاته وسكناته أثناء غيابه لبضعة أسابيع، فهو نفسه الآخر لم يكن يخفى عنى أى شىء، علمت مثلا أن فى كِنْكوسّو مارس سيدى أول عملية جنسية مع الشهيرة بيسكورى، امرأة فى ضعف سنّه، أرملة كثيرة الاستدارات ذات ردف ثقيل وميل مفرط إلى الصبيان الأبكار، تكاد لا تصادف منهم أحدًا حتى ترتمى عليه، ولا تفكّ عنه قبضتها، كانت معروفة بذلك فى كِنْكوسّو، حيث ترود بالصبىّ البكر، تلاطفه، تعدّ له الأكل، تستضيفه، وبعض الأولياء كانوا يشجعونها على مسعاها، وهى لا تريد أن يُفرض عليها بكر، بل تفضل أن تختار فحلها بنفسها، ولا يهمّ أن يكون ناحلا مثل سيدى، كان لها تقنيتها فى اصطياد أولئك الأبرياء، حيث تتصنّع فى البداية نقاشًا من نوع "أمك امرأة طيبة، إنها من صديقاتى"، ثم تحضن الفتى البكر وتحشر يدها فجأة بين فخذيه، فتمسك بأعضائه التناسلية قبل أن تهتف "يا إلهى، أنت تملك حقًا شيئًا ذا بال، أقول لك، بهذا سيكون لك شأن فى حياتك"، ثم تسترسل فى الضحك، قبل أن تتدارك "كنت أمزح، يا صغيرى، هيا، تعال، سأحضر لك أطيب طبق فى كِنْكوسّو، طبق نْغول مو ماكو"، وكان الأهالى يعتبرون بيسكورى الحلّ الأقل سوءًا

لتدريب غرّ مبادئ الجنس، إلا أن سيدى كان مستاء من تلك التجربة، فقد رأى أن بيسكورى شلّت إحساسه باندفاعها المفرط إلى درجة أنه بقى سلبيًا وكأنه يُغتصَب، ثم اعتاد فى ما بعد مخالطة مومسات الجهة، حتى صار يتصور أن المرأة لا تؤدى العملية الجنسية بحنان إلا إذا دُفع لها أجر، ويكسّر حصّالته كلما يقصد تلك القرى لقضاء عطلة، كان يطوف بالأحياء القذرة، مغيرًا عشيقته كل مساء، فيسكر مع تلك الرصيفيّات(*)، ثم يعود إلى سيكيبَمْبى مخروم الجيوب، ولم تكن ماما كيباندى مغفّلة، فقد راودها الظن بأن كيباندى بات يختلط بالنساء، وصارت تتوقع أن يجىء يومٌ يقدّم لها فيه ابنها كنّتها المقبلة أو يطرق أناسٌ بابها صحبة ابنتهم الحامل.

أذكر أيضًا يومَ فاجأت ماما كيباندى سيدى جالسًا أمام باب الكوخ يقرأ التوراة، وكان قد أهداها إياه فى كِنْكوسّو رجل متدين يريد إقناعه باتباع طريق المولى لأنه كان يصادفه فى أحياء بنات الهوى، وذلك دليل على أن سيدى حَمَل ضالّ، آثم يجب إبعاده عن طريق النار، أخذ كيباندى الكتاب واختفى قبل أن يكتشف خادم الرّب ذاك أن الفتى أمّىّ، ولم يكن الرجل بعدُ يدرك الخدمة التى كان أسداها له، لم يفتح سيدى الكتاب طوال أسابيع، أهمله على صوان سريره حتى غطّى الغبار غلافه، وفى ليلة، جفاه النوم، فمدّ يده إلى التوراة يفتحها فى الوسط، قرّب منها أنفه، أغمض عينيه، وعبّ نفسًا طويلاً، فنشق الرائحة الطيبة للصفحة، وعندما فتح عينيه كان ضوء مسرجة الزوابع ينير الكلمات، يعرّى لغزها، ويكوّن حول كل حرف هالة، فتتحرّك الجملة وتنساب كالوادى، لم يعرف

(*) ج رصيفية: مومس تنتره على الأرصفة. (المترجم).

متى بدأت شفتاه تختلجان، وتقرآن، كما لم يدرك أنه كان يقلب الصفحات بسرعة، وعيناه تتنقلان من الشِّمال إلى اليمين دون أن يعتريه دوار، وإذا الكلمات تكتسب الحياة فجأة، تَمَثّل له الواقع، تخيل الرّبّ، تصوّر ذلك الجوّال الغامض يسوع، لم يعد يريد التوقف عن القراءة، تتالت الأيام وما عاد ينام، كان ينقضّ على الكتاب بمجرد عودته من الورشة، لم تخفِ ماما كيباندى دهشتها، كان تصرف ابنها يسليها، تساءلت كيف يمكن لابنها أن يغطى بذلك على جهله، إذ لا يكفى أن يكون بين يدى المرء كتاب حتى يُظهر للناس أنه متعلّم، رأت فى ذلك مزحة لما تعلمه من عدم التحاق سيدى البتّة بالمدرسة، فو إذن لا يستطيع القراءة، ذات يوم، وكانت قد برمت بتلك العادة التى لم تعهدها من سيدى، ألقت نظرة على الكتاب الذى كان يقرؤه، كأنها يمكن أن تلتهمه هى أيضًا، وقد بدا ابنها منهمكا، يتمتم الجمل، ويمر بسبّابته على أسطر الصفحة، ولا شكّ أنها أدركت يومئذ أن ابنها لا يمكن أن يكون إلا مالكا لمثيل، وأن أباه جرّعه **المايَمْفومْبى** فى موسّكا.

لم يعد سيدى قادرًا أن يتخلى عن المطالعة، صار يعود إلى البيت بأصناف من الكتب يشتريها من أسواق القرى المجاورة، فيرتبها فى ركن من ورشته، وكان له منها أيضًا في غرفته، فأنشأ له بذلك مكتبة صغيرة، أغلب كتبها بلا أغلفة، وبعضها الآخر خالٍ من الصفحات الأولى أو الأخيرة، كان يقضى ساعات فى مكتبة كنيسة سان جوزيف بقرية كيماندو، وإذا لم يذهب إلى الورشة أو إلى قرية مجاورة، يقضى كامل أوقاته فى المطالعة، فى تلك الفترة بدأت أنا أيضًا فى تمييز الأحرف التى تتوارد فى ذهنى وكذا الكلمات، وكان مسلّيا أن ألاحظ حجم الأحرف وأكتشف أن الكلمة المنطوقة يمكن

أن ترسم فى مكان ما، صرت قادرًا أن أستظهر عن ظهر قلب ما يقرؤه سيدى، وتفاجأت عدة مرات وأنا أحاور نفسى، ثم وصلت إلى خلاصة مفادها أن البشر يفوقوننا نحن معشر الحيوان إذ إنهم يستطيعون توثيق أفكارهم وخيالهم على الورق، فى تلك الفترة أيضًا قادنى فضولى إلى مغادرة مخبئى، والتسلل إلى ورشة سيدى حين يكون صحبة أمه فى سوق سيكيبَمْبى، فأنقضّ على كومة الكتب، كنت أريد التأكد من قدرتى على تبيّن تلك الكلمات التى تحلّق فى ذهنى مثل يعاسيب ذات أجنحة فضية، فتحت كيفما اتفق صفحات التوراة التى وضعها سيدى قرب أدوات عمله كأنما يريد أن يضفى عليها قداسة، قرأت فصولاً عديدة، واكتشفت حكايات عجيبة كتلك التى حدثتك عنها فى بداية اعترافاتى، وقعت أيضًا على كتب أخرى، لم أكن بحاجة لقراءتها جميعًا، فسوف يتولى ذلك سيدى نيابة عنى، انصرفت قبل هبوط الليل حتى لا يفاجئنى سيدى ووالدته، ولا أدرى فى تلك الحال ماذا يمكن أن يفعلا بى.

يجب أن أجد الكلمات المناسبة لأشرح لك كيف كانت ماما كيباندى تشكو من مرض القلب، لم تشأ قطّ أن يعرف ابنها ذلك، ولم يعلم إلا فى سيكيبَمْبى، حينما استفحل مرضها بعد عامنا العاشر من إقامتنا هنا، وكانت عند اشتداد كل أزمة تقربها من اللحظة المحتومة، تظل ساعات طوالا جامدة، وفى اللحظة التى يساورنا خلالها يقين بأنها أسلمت الروح، تفتح عينيها فجأة، تكتم نفَسها، تزفر دفعة واحدة، تغمغم ببعض كلام من نوع "هذا المرض اللعين لن يظفر بى، أبدًا، أنا سليمة، وأجدادى يحموننى، أنا أذكر أسماءهم كل يوم وكل ليلة، أفكر فى كونغ ـ ديا ـ ماما، فى موكيلا ـ ماسنغو، كينغى ـ موكيلا، مام سوكو، نْزَامْبى يا مْبونْغو، وتاتا

نزامبى، إنهم يعطوننى قلبًا جديدًا، قلبًا يدق أسرع من العفن الذى أحضنه فى قفصى الصدرى"، ولكن ماذا بوسع الأجداد أن يفعلوا أمام قلب يراوح مكانه، يخبط خبط عشواء، ويخفّض نسقه، ماذا بوسعهم أمام هذه العضلة الحيوية التى تقلّصت، وما عادت تزوّد بالدم غير نصف جسمها، الأجداد لا يملكون لذلك ردًا، عزيزى الباوباب، كل ما يقدرون عليه هو قهر حالات حمّى مثلا، إصابة فى الأعضاء التناسلية، بلهارسيا، جرح أو وجع بالرأس، أمّا القلب فتلك مسألة أخرى، وماما كيباندى تعرف ذلك، كانت تتعب لأقلّ جهد، توقّفت عن بيع حصرها منذ أكثر من سنة، وتوقّف سيدى أيضًا عن التنقل، وكنت إذا تسللت إلى ورشته ألاحظ انتشار بيوت العنكبوت والكتب المغبرّة وأدوات العمل المهملة فى ركن، وهذا معناه أن كيباندى لم يعتلِ قمة بيت من البيوت منذ شهور طويلة، كانت ماما كيباندى تحثه على استئناف عمله، وهو يكاد لا يرعيها سمعه، أقلع حتى عن التردد على بغايا كِنْكوسّو، ليراقب أمه عن قرب، كان يساعدها على تجرع خليط من العقاقير أدت، بطول المدة، إلى احمرار شفتيها، ولم يغادر الكوخ إلا يوم التحقت أمه ببابا كيباندى فى العالم الآخر، ولكن قبل ذلك بأسابيع، وكأنها كانت تعلم بموعد رحيلها باليوم والساعة، ذكّرته بألا يعصى أمرها، وألا يسير على خطى الفقيد بابا كيباندى حتى لا يلقى المصير نفسه، ربما لأنها استغربت منه ذلك السلوك غير المعتاد وهو الذى تحول فجأة إلى قارئ مواظب مثل متعلم حقّ، وعدها الفتى وأقسم على ذلك ثلاث مرات باسم أجداده، كانت الكذبة كبيرة، وقد كان من الأفضل لو صارحها بالحقيقة، ففى اللحظة التى رفع فيها القَسم برأس جدوده، انطلق منه ضراط طنّان لم تطلق مؤخرته مثله، مما دفعه

هو والمحتضَرة إلى سدّ مناخرهما، انتشرت فى الغرفة نتونة جيفة حتى أنهما تركا الباب والنوافذ مفتوحة ثلاثين يومًا بلياليها، ولم تـزُل الرائحة الكريهة إلا يوم أن قضت العجوز نحبها، يومَ اثنين رماديّ الطقس، يومٌ لم يستطع خلاله حتى الذباب أن يطير، بدت سيكيبَمّبى مقفرة، والسماء منخفضة إلى حدّ يستطيع الإنسان معه أن يقتطع منها بعض الحزم دون أن يرفع يديه، ثم، وفى حدود الساعة الحادية عشرة صباحًا، ظهر قطيع أغنام هزيلة لا ندرى من أين جاءت، وطافت بورشة سيدى، توقفت أمام كوخهما وغمرت الفناء بفضلاتها الإسهالية ثم اتجّهت فى صفّ واحد إلى الوادى بعد أن أطلق أكبرها سنّا أنّة حيوان يذبح فى مسلخة، أسرع كيباندى إلى غرفة أمه فوجدها هامدة، ملامح وجهها متقبّضة، ويدها اليمنى على نهدها الأيسر، كأنها كانت تعدّ دقات قلبها الأخيرة قبل أن تغمض عينيها إلى الأبد، راح سيدى يطوّف فى كامل أرجاء سيكيبَمّبى ينعى موت أمه، دفنت ماما كيباندى فى موضع خاص بالغرباء، حضر الجنازة بعض الأشخاص بعدد غير كبير، نظرًا لأن القرويين كانوا يعتبرونها هى وابنها "من الوافدين من مكان آخر، من الخارجين من جوف الجبل" حتى وإن كانا يقيمان هنا منذ أمد بعيد، وحسبما أعلم، عزيزى الباوباب، إن معرفة الماضى أساسية فى تقارب البشر بعضهم من بعض، وليس كما هو الشأن فى عالمنا نحن، حتى وإن كانت طائفة من الحيوانات المستقرة تنظر نظرة ارتياب إلى قدوم دابة غريبة، أعرف عن تجربة أن الحيوانات أيضًا تخضع لنظام محدد، فلها أرضها وسائسها وأوديتها وأشجارها ومساربها، وليست الفيلة وحدها هى التى تملك مقبرة، كل الحيوانات حريصة على عالمها، إلا أن أبناء عمومة القرد،

وهذا أمر غريب، يولّد لديهم فراغ ما أو طيف أو التباس ماضٍ الريبةَ وربما الرفض، لهذا السبب لم يحضر كثير من السكان موكب دفن ماما كيباندى التى بقيت جثتها ثلاثة أيام بلياليها تحت سقيفة من جريد النخل صنعها سيدى قرب ورشته.

عزيزى الباوباب، أريد أن تحتفظ من ماما كيباندى بصورة امرأة شجاعة على الأقل، امرأة كانت تحب ولدها، امرأة متواضعة عاشت فى هذه القرية، امرأة أحبت هذه القرية وقضت أياما كاملة فى نسج الحصر، امرأة قد لا تنعم بالنوم فى العالم الآخر لأن سيدى نكث عهده، هو سوف يعيش هنا وحيدًا، فقد قرر استئناف عمله فى هيكلة البناء، وأنا أطوف قرب ورشته سمعته يستعمل أدواته بحنق، ينشر الخشب بعصبية، وأبصرته يقصد القرية المجاورة للعمل فى إحدى الحظائر، ثم يعود فى المساء فيستلقى على السرير، ويفتح صفحات من كتاب، فى ذلك الكوخ كان يمكن تخيل شبح ماما كيباندى، خصوصًا حينما يموء قط فى هزيع متأخر من الليل، أو تسقط ثمرة فى الوادى، هو نفسه الآخر لسيدى صار يعودنى باضطراد، كان يولينى ظهره كالعادة، فألمح طيفًا حزينًا، تائهًا، أعرف الآن أننا نقترب، نقترب كثيرًا من بدء عملياتنا، وأننا يمكن أن نشرع فيها، فماما كيباندى ما عادت هنا كى يبدى سيدى تحفظاته.

كيف صار يوم الجمعة الماضي
يوم نحس

أريد أن أحدثك عن ذلك اليوم الذى عاد فيه كيباندى من زيارة قبر أمه، يوم قررت أن أطوف بكوخه حوالى الساعة العاشرة ليلا، كنت مسكونا بهو نفسه الآخر لسيدى فترة ما بعد الزوال، سمعته يجرى فى شتى الاتجاهات. يحرك النبت، يرتمى فى الوادى، يختفى برهة، ثم يعود بعد نصف ساعة، كنت أعرف أن هذا الهو نفسه الآخر يبعث إلى برسالة، دقت اذن ساعة عمليتنا الأولى، كنت أهتز داخل مخبئى. يكاد لا يسعنى مكان، فكيباندى يريد أن يرانى، يتحسسنى، لذلك، ما إن وصلت قرب الورشة، والليل مدلهمّ لا يتيح لى أن أرى أبعد من خطمى، حتى لاحظت ألا ضوء فى الكوخ، وعهدى بسيدى يطالع الكتب حتى وقت متأخر، لاحظت أيضًا أن الباب موارب، تسللت عبر فتحته بهدوء فوجدت كيباندى مستلقيًا على حصير نسجتها أمه، حصير مكتملة حتى النصف كان يفضّلها على أى شىء آخر، جعلت أقرض أظفاره، وكذلك كعابه، وبما أنه كان يحب حركات المداعبة تلك، فقد استفاق وفزّ قائمًا، رأيته يرتدى ثيابه ويولينى ظهره حتى لا أرى عورته، وعند عبورى الغرفة الصغيرة التى تقوم مقام الصالون عثرت على هو نفسه الآخر ممددًا على الأرض، غادرنا الكوخ فيما هو نفسه الآخر ينتقل

للاستلقاء على آخر حصير نسجتها ماما كيباندى، سرت بخطى قصيرة حثيثة خلف سيدى وهو يتقدم مغمض العينين، كأنه أعمى، حتى صرنا على مسافة بضع مئات من الأمتار من ضيعة مهيكل البناء بابا لوبوتو، جلس سيدى عند جذع شجرة مانجو، رأيته يرتعد، يكلم نفسه، يمرر بيده على بطنه كأن به أوجاعًا تؤلمه، "امضِ الآن، جاء دورك"، قال لى، وأشار بيده إلى كوخ فى الطرف الآخر من الضيعة، وإذ ترددت، أعاد أمره بأكثر صرامة، فاستجبت، ولما وصلت خلف الكوخ وجدت حفرة واسعة، لعلها من عمل قواضم الناحية، عبرت منها دون تردد، ونفذت إلى غرفة نوم الفتاة كيمينو ابنة بابا لوبوتو، مراهقة ذات بشرة صافية ووجه مدوّر، يقال إنها أجمل بنات سيكيبَمْبى، تقدّم للزواج منها أربعة خطّاب، وهم لا ينتظرون سوى العام الموالى حينما تبلغ سن الرشد ويكشف بابا لوبوتو عن اختياره النهائى، كانت الفتاة كيمينو أمامى، تملّيت جمالها برهة، والوزرة تكاد لا تستر وركيها، وصدرها فى متناولى، انتابنى نوع من الرغبة العنيفة، الملحّة، حتى خفت من جهازى التناسلى، وأنا الذى لم يرتكب قذارات مع أىّ أنثى ولو كانت من بنى جنسه، أقسم لك، بل إن ذلك كان دائما يسبب لى أكالا، لم يكن ذلك يشغل بالى بخلاف بعض أفراد طائفتنا فى تلك الفترة، أولئك الذين يستسلمون لتلك الأمور الدنيئة حينما يدير لنا السائس ظهره، كانوا أكبر منى سنّا، أولئك الرفاق، وهأن زائدة غريبة تنمو فجأة بين قائمتىّ الخلفيتين، تصلّب عضوى وأنا الذى كان يظن أنه لا يصلح إلا للتبول مثلما يصلح شرجى للتغوّط، تملكنى الخجل، أقسم لك أنى لا أدرى حتى الآن ماذا أفعل لو وجدتنى وجهًا لوجه أمام شيهمة تراودنى عن نفسى أو تدعونى بحركة من هذا القبيل، قد

أكون مدينا بعذرتى لقدرى بوصفى مثيلاً، عندما كان أفراد طائفتى الآخرون ينشئون علاقات جنسية مع الإناث، كنت كأنى أحضر مشهدًا نجسًا، كان الأمر عسيرًا ولكنهم يبلغون مرادهم، حيث يغضبون ويتأوّهون ويتعلّقون بأشواك خليلاتهم، فأتساءل عما يحسون وهم يشوّرون بتلك الكيفية كأنهم مصابون بالصّرع، زد على ذلك، لا بد أن أقول لك، أن صوت احتكاك أشواكهم يزعجنى، فيما هم يجدون فى ذلك لذتهم، قبل أن يرسلوا حشرجة طويلة ويدخلوا فى حالة رنح يسهل معها على طفل لا يزال يبول فى مهده أن يقبض عليهم بيديه، قلت إذن، فى ذلك اليوم الأول لخروجى اكتشفت أن ذَكرى، وإن كان عديم الاكتراث بمفاتن شيهمة، ينفعل أمام عرى أنثى آدمية، ولكن مهمتى ليست فى محاولة التجربة مع تلك الفتاة، لذلك طردت، بعد تردد، الهواجس التى عبرت فكرى، قلت فى نفسى إنى لم أخلق لمثل تلك الأشياء، وإنها تمارس بين أفراد من نفس الجنس، ولكى أطرد تلك الأفكار من ذهنى نهائيًا، طفقت أفكر فى شىء آخر، فى هدف مهمتى، تساءلت ما الذى يدفع سيدى إلى التعرض للحسناء كيمينو، ربما بسبب هذا الجسد ذى القوام الكامل، مرة أخرى طردت بظاهر قائمتى هذه التساؤلات حتى لا أضعف لحظةَ انتقالى إلى الفعل، ولكن فى واقع الأمر، حتى وإن جهدت فى إحداث فراغ داخل مخّى، فإنى رحت أفكر، تذكرت أن كيباندى هو واحد من الخطاب الأربعة، وكان طلبه قد أثار سخرية أهالى القرية إلى حدّ جعل سيدى يبدى ندمه على خطوته، رأيته فى مناسبتين أو ثلاث مناسبات يتحدث مع بابا لوبوتو قرب ساحة السوق، بل إنه شاركه ذات مرة شرب نبيذ النخل، سمعت الرجل يتحدث بتأثر عن ماما كيباندى، قال "كانت امرأة طيبة، وسوف

تذكرها القرية حتى بعد سنوات وسنوات، صدقنى، يمكن أن تفخر بها، أنا أعرف أنها ترعاك"، ولم يكن فى صوته أثر لصدق، ثم إن كيباندى لا يزال يتذكر أن بابا لوبوتو لم يحضر جنازة أمه، أى أنه كان يبدى وجهًا بشوشًا لسيدى طمعًا فى هدايا خطيب يعرف أنه سيرفض طلبه عند حلول الأجل، وعندما ينهى الخطاب حديثهم مع حميهم الموعود، ينصرف كل واحد منهم وهو مقتنع بأنه سعيد الحظ الذى سوف يزوجه بابا لوبوتو ابنته مغمض العينين، إلا أن سيدى ليس غرًّا، كان يعلم أن حظوظه معدومة، وبرغم ذلك كان يعطى ذلك المحتال كل ما يملك، كل ما ورثه عن أمه من حصر احتفالات وسلال من سعف النخل، ومدخرات عمله فى هيكلة البناء، كما أنه أعاد تسقيف بيت الرجل دون أن يطالبه بفلس، وكان يمكن أن نقرأ فى عينى بابا لوبوتو نوعًا من الترقب لا يروى نهمه، كان يتفاخر فى القرية، ويروى أن كيباندى دميم كالبرغوث، نحيل كمسمار إطار صورة، ويضيف أن امرأة خليقة بهذا الاسم لا تقبل أبدا طلب سيدى الذى يمكن أن يستمر فى حلمه، وأنه سوف يتسبب فى إفلاسه وينتزع منه حتى سراويله وفانيلاته الداخلية ومداساته المطاط، وما من شك أن الحرمان والتمرد هما اللذان قادا سيدى إلى العناية بتلك الأسرة لأنه، يجب أن أؤكّد ذلك عزيزى الباوباب، لكى يأكل آدمىٌّ آدميًا آخر فلا بدّ لذلك من أسباب ملموسة، الغيرة مثلا، الغضب، الحسد، الإهانة، قلة الاحترام، أقسم لك أننا لم نأكل أحدا قطّ لمجرّد لذّة أكله، قلت إذن، فى تلك الليلة التى لا يمحوها النسيان، كانت الفتاة كيمينو نائمة كملاك، كانت يداها متقاطعتين على صدرها، جذبت نفَسًا قبل أن أقيم شوكة من أكثر أشواكى صلابة، وأطلقها فى صميم صدغها الأيمن، لم تجد

الوقت لتعى ما أصابها، أطلقتُ شوكة ثانية فارتجفت واضطربت دون جدوى، ثم تجمدت حركاتها فدنوتُ منها، سمعتها تهذى بكلام مشوش، فرحت ألحس الدم المنساب من صدغيها، رأيت الثقب الذى أحدثته شوكتى يزول كما لو كان بفعل سحرى، لن يبقى إذن أى أثر مرئى حتى لمن له أربع عيون، مضيت أجول فى الغرفة الأخرى حيث ينام والدا الفتاة، كان الأب يشخر مثل سيارة قديمة، والأم حذوه وقد تدلّت ذراعها اليسرى من السرير، لم تكن تسوية أمرهما ضمن مهمتى، لذلك طردت نداء بداخلى يهمس لى بتصويب شوكتين أو ثلاث نحو صدغى والدى كيمينو.

من الغد، غمر الذهول كامل سيكيبَمْبى، لقد ماتت كيمينو، وإذا كان الناس متفقين على أنها أُكلِت، فإنهم عزوا ذلك إلى تنافس بين سلالة أبيها وسلالة أمها، ووصل الخلاف بين الأسرتين إلى الشجار، وأُخرِجت فؤوس الأدغال والحراب والمعاول، استطاع شيخ سيكيبَمْبى تهدئة الجانبين، واقترح أن يقع اللجوء يوم الدفن إلى الاختبار المعروف الذى تكشف فيه الجثة عن قاتلها، كان كيباندى يتحسّب لذلك نوعا ما، عزيزى الباوباب، لذلك استعد له، وكان بابا كيباندى قد علّمه كيف يتجنب تلك الأشياء، حيث عمد إلى إيلاج حبة جوز كرنبى فى مخرجه تماما كما فعل والده يوم حاول خداع الكاهن التيمى تَمْبى - إسّوكا، وبذلك وجهت جثة الفتاة كيمينو تهمة القتل إلى أحد الخطاب الآخرين، ذلك البرىء المسكين الذى دفن حيّا مع الميتة، دون أى شكل آخر من أشكال القضاء، لأن تلك هى العادة

عزيزى الباوباب، اختبار الجثة التى تكشف عن قاتلها يخشاه الجميع، هى شعيرة منتشرة فى كامل الجهة، وكلما مات شخص

هبّ القرويون يتوسلون بها، فلا وجود لموت طبيعى فى أذهانهم، والميت هو وحده من يدلّ الأحياء إلى من كان سببا فى موته، لا شك أنك تريد أن تعرف كيف تتم الأمور فى هذه الحالة، اعلم إذن أن أربعة رجال أشدّاء يقومون بحمل النعش على كواهلهم، يتقدم كاهن تيمىّ عيّنه شيخ القرية وبيده عود حطب، فيضرب التابوت ثلاث ضربات سائلا الميت "قل لنا من الذى أكلك، أرنا فى أى كوخ يسكن القاتل، لا يمكن أن ترحل هكذا إلى العالم الآخر دون أن تأخذ بثأرك، تحرك إذن، اجر، طر، اعبر الجبال والسهول، إذا كان القاتل يقيم فى ما وراء المحيط أو يعيش مع النجوم، فسوف نذهب إليه ليدفع ثمن الإساءة التى ألحقها بك وبأسرتك"، فيشرع التابوت فجأة فى الاهتزاز، ويبدو الرجال الأربعة الذين يحملونه كأنهم منساقون إلى رقصة شيطانية، وقد فقدوا الإحساس بثقل الجثة، فيجرون ذات اليسار وذات اليمين، وغالبًا ما يقودهم النعش وسط الأدغال ثم يعود بهم إلى القرية فى سرعة جنونية، وهم يمشون على الأشواك والشّقَف دون أن يحسّوا بالألم أو يصابوا بجروح، ويغوصون فى الماء دون أن يغرقوا، يخترقون حرائق الغابة دون أن يصابوا بحروق، ومما يذكر أن قومًا من البيض جاءوا مرّة يشهدون هذه الشعيرة للحديث عنها فى كتاب، قدّموا أنفسهم بوصفهم علماء فى أصول السلالات البشرية، ووجدوا صعوبة كى يشرحوا لبعض بلهاء سيكيبَمْبى صلاحية عالم السلالة، أما أنا فقد ضحكت كثيرًا لأنه، باختصار، وحق الشيهم، كان بوسعى أن أقول لأولئك الأغبياء إن علماء السلالة هم أناس يروون أشياء حول طبائع بشر آخرين ينظرون إليهم نظرة استغراب مقارنة بثقافتهم هم، هذا كل ما فى الأمر، ولكن أحد البيض حاول أن يبين لأولئك المساكين الذين ضلّت

عقولهم أن مصطلح "إثنولوجيا" مأخوذ من العبارة اليونانية "إثنوس" ومعناها "الشعب" فالإثنولوجيون إذن يدرسون الشعوب والمجتمعات وعاداتها وطرق تفكيرها وعيشها، وأكّد لهم أن مصطلح "إثنولوغ" يزعج البعض، ومن ثَمّ يمكن تبسيط ذلك بقولنا "أنتروبولوغ اجتماعى" وهو ما زرع فى الأذهان بلبلة، إذ غلب الظنّ أنهم ليسوا سوى عاطلين عن العمل فى بلدهم أو هم جاءوا لوضع هوائيات فضائية فى القرية لمراقبة الناس، قلت إذن إن هؤلاء البيض الإثنولوجيين أو الأنتروبولوجيين الاجتماعيين قدموا هنا، وظلوا يترقبون حالة موت، ولحسن حظهم أُكِلَ فى الأثناء أحد القرويين، ليس بفعل سيدى وإنما بفعل شخص آخر كان فأر الزّباب مثيله المضرّ، هتف علماء السلالة بصوت واحد "رائع، لنا الآن ميّتنا، إنه فى الطرف الآخر من القرية، الدفن غدًا، سوف ننتهى أخيرًا من وضع هذا الكتاب اللعين"، طلبوا أن يحملوا التابوت بأنفسهم، على كواهلهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن أمرًا خفيًا يقف وراء تلك الممارسة، وأن الرجال الأربعة المكلفين بحمل النعش هم الذين يحركونه فى هذا الاتجاه أو ذاك لاتهام الناس بالباطل، ولكن مشاركة رجال بيض فى هذه الشعيرة أثار الانقسام فى صفوف الأهالى، بعض الكهنة لا يريدون تدخل الغرباء فى شئون سيكيبَمْبى، أخيرا قام شيخ القرية بدور الدبلوماسى، فأقسم بأن شعائر الأجداد تسرى حتى بحضور البيض، لأن أجداد القرية أقوى من البيض، واستطاع إقناع الجميع بأنها فرصة جيدة أن يحضر هؤلاء الأغراب اختبار الجثة، ولسوف يتحدثون فى كتابهم عن سيكيبَمْبى، فتصير القرية معروفة فى شتى أنحاء العالم، وتستلهم منها عدة شعوب أخرى عاداتها لما فيه مجد الأسلاف، انقشع الاستياء وناب

عنه فخر جماعىّ، وكاد التنافس يتحول إلى شجار حينما أزفت ساعة اختيار كاهن من بين دستة من كهنة القرية لمراقبة سير الشعيرة، كلهم صاروا يرغبون فى العمل مع البيض، بعد أن كانت تلك الفكرة مرفوضة من أساسها منذ ساعات، وجعل كل كاهن تيمى يفاخر بنسبة وأصوله، والحال أنه لا يلزم سوى واحد منهم فقط، جمع شيخ القرية دستة من الغوارى، وعلّم أحدها بعلامة تقاطع صغيرة، ووضع القطع جميعًا فى سلّة فحرّكها، ثمّ طلب من كل كاهن أن يغمض عينيه قبل أن يدخل يده فى السلة فيسحب غوريًا عن طريق الصدفة، فمن وقع بيده الغورى المعلَّم يؤول إليه شرف تسيير الشعيرة، ظل الحل معلّقا حتى الغورى الحادى عشر حيث وفّق كاهن كان لا ينى يرجئ دوره فى سحب القطعة المعلّمة تحت أنظار زملائه الحاسدة، وبعد أخذ وردّ رفع الإثنولوجيون أو الأنثروبولوجيون الاجتماعيون التابوت وسط قهقهات القرويين الذين ما عادوا يخشون إهانة ميتهم بإبدائهم جهارًا تلك السخرية، ومضى الكاهن المختار، وهو يكتم ضحكة مجنونة هو أيضا، يضرب التابوت ضربات ثلاثا بعود الحطب، ووجد صعوبة فى إيجاد الكلمات المناسبة كى يتوسّل للجثة بتوجيه الإصبع إلى قاتلها، ولكن الميت أدرك ما هو منتَظَر منه، خصوصًا أن الكاهن أضاف إليه قوله "لا تفضحنا أمام هؤلاء البيض الذين قدموا من بلاد بعيدة، والذين يعتبرون عاداتنا مجرد مزحة"، لم تتوان الجثة لحظة، وفيما المطر يهطل نثيثا تحرك التابوت قدما بقفزات قصيرة أشبه بنطة كنغر صغير، صاح الإثنولوجيون فى الخلف "إيه، أيها الزملاء الأعزاء، توقفوا عن تحريك هذا التابوت اللعين، دعوه يتنقل إذا كان فعلا يستطيع ذلك، اللعنة"، فيرد الإثنولوجيون الذين فى المقدمة "كفّوا

عن الحماقات، أيها الأصدقاء، أنتم الذين تحركونه، عليكم اللعنة"، واهتاجت الجثة، ونشّطت نسقها، وجرّت الأنثروبولوجيين الاجتماعيين إلى حقل ملتويات(*)، عادت بهم إلى القرية، دفعتهم إلى الوادى، عادت بهم ثانية إلى القرية قبل أن توقف سباقها الجامح أمام كوخ العجوز موبُنّغولو، وبعد الاستعداد للاندفاع حطّم التابوت باب الكوخ، ودخل إلى مسكن القاتل، وإذا فأر زباب هرم له رائحة فى نتونة ابن عرس يفرّ من المسكن، دار حول نفسه وسط الفناء، وانطلق باتجاه الوادى، أدركه التابوت قبل أول أكمة، فانهال عليه يسحقه، وهكذا مات العجوز موبُنّغولو، عزيزى الباوباب، يبدو أن أولئك البيض ألفوا كتابًا ضخمًا من تسعمائة صفحة لسرد هذه الحكاية، لا أدرى هل أصبحت سيكيبَمّبى مشهورة فى العالم، المهم أن بيضًا آخرين قدموا للتأكد مما دونه البيض الأوائل فى كتابهم، كثير منهم عادوا من حيث جاءوا خائبين لأن الأهالى الذين لهم مثل مضرة كانوا يحترسون منهم، ثم إن الأمور كانت تسير وكأن الناس ما عادوا يموتون عند وجود البيض فى الأنحاء، بل حدث أن قاطعت بعض الجثث الشعيرة، ورفضت الامتثال لها، وبعض القرويين صاروا يعبرون فى وصاياهم عن رفضهم إخضاع جثثهم للشعيرة بحضور البيض الذين قد يشوهون صيتهم فى العالم أجمع، وأنت تفهم إذن أن ذلك التقليد صار يمارس الآن بكثير من الحذر، ولكن فى الواقع، ينبغى أن أقول لك، يا عزيزى الباوباب، إن السبب الجدير بالتصديق متأت من شخص كان يسمّى أميدى، وإن تحدثت عنه بصيغة الماضى، فذاك لأنه لم يعد من هذا العالم، على روحه الرحمة، كان كما يصفه الآدميون متعلّمًا، رجلاً مثقفًا، تابع دراسات

(*) ج. ملتوية: جنس جنيبات للتزيين. (المترجم).

مطولة، وهو ما جلب له احترام الجميع، زد على ذلك أنه سافر كثيرًا، امتطى عدة مرّات الطائرة، ذلك الطائر الصاخب الذى يمزق السماء ويكاد يقطع قمتك كل مرّة، قيل إن أميدى كان أذكى أهل الجنوب، لكى لا نقول البلاد بأسرها، ومع ذلك أكلناه كما سترى بعد قليل، هذا الرجل هو الذى زعم أن الكتاب الذى وضعه البيض الأوائل حول هذه المسألة صدر فى أوروبا وترجم إلى عدة لغات، وأكّد أن ذلك المصنّف صار مرجعًا لا غنى عنه لعلماء السلالة، ولم يبخل أميدى، الذى قرأه، عن إبداء انتقاداته، "لم أقرأ فى حياتى بهتانًا كهذا، ماذا أقول لكم أكثر من هذا، هه، إنه كتاب مخجل، إنه كتاب مهين للمجتمعات الإفريقية، إنه نسيج من الكذب حاكته مجموعة أوروبيين يبحثون عن الأشياء الغريبة، ويتمنون أن يواصل الزنوج ارتداء جلود الفهود والسكن فوق الأشجار".

يهبّ الآن نسيم، وتتساقط علىّ أوراقك، إنه أسبوع لطيف، هذه الجزئيات الصغيرة صارت تتيح لى أن أعطى فرحة الحياة قيمة، وحينما أنظر إلى السماء أقول فى نفسى إنك محظوظ كثيرًا بالعيش فى مكان فردوسى، كل شىء هنا أخضر، وأنت تعتلى هضبة، وتسيطر على الجوار، الأشجار حولك راكعة فيما أنت تروز تقلبات الجوّ فى لامبالاة من رأى فى حياته كل شىء، الأجناس النباتية الأخرى تبدو إلى جانبك أشبه بأقزام الحدائق، أنت تسوس بالنظر النباتات كلها، من هنا أسمع خرير مياه الوادى، وهى تتكسّر على الصخور فى أسفل المنحدر، قلة من أهالى سيكيبَمْبى تقودها أقدامها إلى هذه الأمكنة، تُستخلَص الدهون كلها من هذه الغابة، وأنت لا تُلمس أبدًا لما يكنّه القرويون من احترام لأشجار الباوباب، أعرف أن الأمور لم تسر دائمًا على هذا النحو، أعرف أن أشياء قيلت عنك، أستطيع قراءتها من تعاريق لحائك، بعضها بمثابة ندوب، فقد وجد من القرويين مجانين حاولوا القضاء عليك، وفى جنونهم المدمّر، وحق الشيهم، أرادوا تحويلك إلى مجرد حطب تدفئة، كانوا يظنون أنك تسدّ الأفق، وتغطى ضوء النهار، ولكنهم لم يفلحوا لأن منشارهم انثنى أمام صمودك الأسطورى، ثم قنعوا

بأشجار الأوكومة التى يستعملونها ألواحًا لصناعة توابيتهم وبيوتهم، ذلك الخشب الذى يستعمله سيدى أيضًا فى هيكلة البناء، يوجد قرويون يعتقدون أن لك روحا، وأنك تحمى الجهة، وأن زوالك وبيل، سيئ العاقبة على المنطقة، وأن نسغك فى قداسة ماء كنيسة القرية، وأنك حارس الغاب، وأنك موجود منذ غابر الأزمنة، ولعل هذا ما جعل الكهنة التيميين يستعملون لحاءك لعلاج المرضى، وثمّة آخرون يؤكدون أن الحديث إليك هو حديث إلى الأسلاف، "اجلس عند منبت باوباب، وبمرور الوقت، سترى الكون يتتالى أمامك"، كان شيهمنا العجوز يقول لنا أحيانًا، ويروى أن أشجار الباوباب كانت فى ما مضى قادرة على الكلام، وإجابة الآدميين، وعقابهم، وجلدهم بأغصانها حينما يتكتل أبناء عمومة القرد ضد النباتات، فى ذلك الوقت، يواصل كلامه، كانت أشجار الباوباب قادرة على التنقل من مكان إلى آخر، وتخيّر المكان المناسب لتجذير عروقها، بعضها كان يأتى من مكان بعيد، بعيد جدا، فتتقاطع طرقه مع أشجار باوباب أخرى تتجه وجهة معاكسة لأننا نميل دائما إلى الاعتقاد بأن الأرض الغريبة خير من تلك التى شهدت مولدنا، بأن الحياة أحسن احتمالاً فى مكان آخر، وكنت أتخيل فترة الرحلات الكبرى تلك، حيث لم يكن للفضاء حدود، أما اليوم فلا أحد يمكن أن يضع كلام سائسنا موضع ثقة، من هو الإنسان المشحون بالعقل، المثقل بالأفكار المسبقة، الذى قد يتخيل أن شجرة تجذرت عروقها نهائيًا فى الأرض يمكن أن تتنقل، هه، والإنسان الشّكّاك سيردّ فورًا "ولم لا تتنقل الجبال أيضًا، بالمناسبة، هه، هى أيضا تستطيع أن تتفسّح، تتصافح عند مفترق الطرق، تتجاذب أطراف الحديث عن المطر وصفاء الجوّ، تتبادل العناوين، تسأل بعضها بعضا عن أخبار

عائلاتها، كل هذا لغو وكلام فارغ"، أنا أؤمن بذلك، وأعطى الحق لسائسنا هذه المرة، ما يرويه لنا ليس أساطير، ليس لغوًا وكلامًا فارغًا، كان على حق، أعرف أنك قد تنقلت أنت أيضًا، لا شك أنك هربت من المناطق التى تهددها الصحراء، الجهات التى ينزل فيها المطر قطرات، هجرت أسرتك، واقتربت من المناطق المطيرة، وليس صدفة أنك اخترت أكثر أراضى البلاد خصوبة، لا أدرى هل يوجد باوباب آخر فى الأنحاء، ولكم أودّ أن أعود إلى نسبك، لأعلم من أى شجرة تنحدر وفى أى مكان عاش أجدادك الأوائل، ولكن ربّما نأتى قليلاً بحديثى عنك عن اعترافاتى الخاصة، هه، مرة أخرى ينطق الجانب البشرى من طبعى، لقد تعلمت من البشر مفهوم الاستطراد، فهم لا يقصدون الهدف مباشرة أبدًا، بل يفتحون أقواسًا ثم ينسون إغلاقها.

لا أحبّ هذا النوع من البشر مثل ذلك الشاب المتعلم الذى يسمونه أميدى والذى أكلناه، لم يبلغ بعد الثلاثين، وهو من قرأ الكتاب الذى ألفه الإثنولوجيون أو الأنثروبولوجيون الاجتماعيون حول شعيرة الجثة التى تكشف عن قاتلها، أحدثك عنه لأنه إن وُجِد كائن لا آسف على موته فهو ذلك الشاب، كان مغرورًا، متبجّحًا من الطراز الأول يعتبر نفسه أذكى مَن فى القرية والجهة وحتى البلاد، كان يلبس بدلات من الترغال وربطات عنق متلألئة وأحذية أناس يعملون فى المكاتب، مواقع الكسل تلك حيث يجلس الآدميون ويتظاهرون بقراءة أوراق، ويؤجلون عمل اليوم إلى الغد، كان أميدى يمشى وجذعه إلى الأمام لمجرّد أنه تلقّى دراسات طويلة، ولأنه كان فى بلدان ينزل فيها الثلج، حينما يعود إلى سيكيبَمْبى لزيارة أهله، تجرى خلفه البنات الحائلات، وحتى النساء المتزوجات يخنّ أزواجهن، ويأتينه بالأكل خلسة خلف كوخ أبيه، ويغسلن ملابسه الوسخة، والرجل يقوم بتلك الأمور الدنيئة مع أولئك مع النساء المتزوجات والبنات الحائلات فى الوادى، على العشب، فى الحقول، خلف الكنيسة، قرب المقبرة، لم أكن أصدّق عينىّ، صحيح أنه كان جميلاً، صنديدًا، فهو يقضى مجمل وقته فى تعهّد ذلك الجمال

بحركات آدمىّ من جنس مؤنّث، لم يحدث أن شاهد الناس مثل ذلك التغنّج فى القرية، كان إذا قصد الوادى للسباحة يظل يتملّى وجهه طويلاً، يضمّخ جسده بدهون معطّرة، ويتأمّل بإعجاب صورته على صفحة الماء الهادئة التى تكاد تتواطأ معه فى ذلك التغنّج، عندئذ يقول لنفسه كم هو جميل، جميل جداً، وفى يوم كاد يغرق، لأنه، ولكى يتأمّل طيفه كاملا بشكل أفضل، وضع قدميه على حجر تغطيه رغوة صابون، وَهوبْ، وحقّ الشيهم، زلت قدمه فوقع فى الماء، ولكن لحسن حظّه كان يحسن السباحة إذ أدرك الضفة الأخرى بأسرع مما تتخيل، ضحك مثل أبله، وصفّق له السبّاحون، ولكى يحتفل بذلك اليوم الذى قارب فيه الموت، قطف خبّيزة حمراء وألقى بها فى الوادى، رآها تنساق مع التيار قبل أن تتوارى حيث يتشابك السّرخس والنينوفر، لهذا ما عاد أهالى القرية يقولون "خبّيزة حمراء" عند الحديث عن تلك الزهرة، صاروا يسمّونها "زهرة أميدى".

الأدهى من ذلك أن أميدى كان ينتقد بصوت عال سلوك المسنّين، وينعتهم بالعجائز البلداء والجهلة والحمقى، ولا يسلم من لسانه إلا أبواه لأنهما، كما يقول، لو قدّر لهما الذهاب إلى المدرسة لكانا فى مثل ذكائه، فهو يستمد ذكاءه منهما، وكان ذلك الدعىّ حينما يطلع النهار يجلس تحت ظل شجرة، ويطالع كتبًا سميكة مكتوبة بأحرف دقيقة، وهى فى الغالب روايات، أوه، أنت لا تعرف قطعًا ما الرواية، فربما لم يستجر بجذعك أى شخص ليقرأ إحداها، أنت لم يفُتكَ شىء، عزيزى الباوباب، ولكن لكى أبسّط لك الأمور ولا ألوّث ذهنك، أقول إن الروايات هى كتب يؤلفها البشر ليرووا أشياء غير حقيقية، فهم يزعمون أنها من وحى خيالهم، يوجد من الروائيين من

هم على استعداد لبيع أمهاتهم كى يسرقوا منى قدرى الشيهمى، سوف يستأنسون به لكتابة حكاية لن يكون لى فيها الدور الأفضل، وأظهر بمظهر حيوان ذى طباع رديئة، أؤكد لك أن الآدميين يعانون الملل بشكل يجعلهم بحاجة إلى تلك الروايات كى يختلقوا لأنفسهم حيوات أخرى، فى تلك الكتب، عزيزى الياوباب، حين نغوص فيها، يمكن أن نتجول فى العالم بأسره ونغادر الأدغال فى طرفة عين، ونجد أنفسنا فى بلدان بعيدة، حيث تصادف شعوبًا مختلفة وحيوانات غريبة وحتى شياهم لها ماض أكثر شبهة من ماضىّ، غالبا ما يلهبنى الفضول وأنا أتخفى فى أكمة لأسمع أميدى يحدث البنات عن تلك الأمور الموجودة فى كتبه، وهن ينظرن إليه باحترام واعتبار، لأن من عادة أبناء عمومة القرد أنهم إذا قرءوا كثيرًا حقّ لهم أن يفتخروا، ويعتبروا الآخرين أقل من لا شىء، هؤلاء الذين قرءوا كثيرًا يتحدثون بلا انقطاع، ويستشهدون خاصة بأشياء تتضمنها الكتب الأشدّ صعوبة على الفهم، هم يريدون أن يعلم الآخرون أنهم قرءوا، كان أميدى إذن يروى لأولئك البنات البائسات الحظ العاثر لشيخ ركب البحر ليصطاد وكيف قاوم وحيدا سمكة عظيمة، تلك السمكة فى نظرى هى مثيل مضرّ لصياد كان يحسد ذلك الشيخ وخبرته، وكان الشاب المتعلم يتحدث أيضًا عن شيخ آخر يهوى قراءة روايات الغرام، وكيف ساعد إحدى القرى فى القضاء على وحش زرع الرعب فى كامل الجهة، وأنا على يقين من أن ذلك الوحش هو مثيل مضرّ لأحد القرويين فى تلك البلاد البعيدة، وأميدى أيضا هو الذى يروى لهنّ مرارًا وتكرارًا حكاية شخص يتنقل على بساط طائر، وبطريرك أنشأ قرية تدعى ماكُندو وأتى على ذريته نوع من اللعنة، حيث تولَد خلقًا نصفه إنسان ونصفه

الآخر حيوان له فنطيسة الخنزير وذنبه، وأنا مقتنع بأن المسألة تتعلق بحكايات مُثل مضرّة، وفى ما أذكر، كان يحكى مغامرات شخص غريب الأطوار دأب على محاربة طواحين الريح، وفى السياق نفسه، مأساةِ ضابط كان ينتظر المدد دون جدوى فى معسكر موغل فى الأرض اليباب، وما قولى فى ذلك العقيد الهرم الذى كان يترقب رسالة ومعاشه كعسكرى سابق، هذا العقيد التعس كان يعيش فى العراء مع زوجته المريضة وديكهما، ديك عراك وضعا فيه كل آمالهما، فهو بارقتهما الوحيدة، ولا شك أن ذلك الحيوان مثيل مسالم، لذلك لن أطيل، إذن، ولكى يخيف البنات، لأنهن كنّ يحببن الإحساس برعدة الخوف، والاستماع إلى حكايات الاغتصاب والدم والقتل، كان أميدى يحدثهن عن وغد فى عصابة عنّين اقترف اغتصابا بواسطة سنبلة ذرة فى مكان قصىّ بجنوب أمريكا، ولا يفوّت الفرصة كى يحكى لهن حكاية مأساوية عن جريمة قتل مضاعف فى شارع يسمى يا للغرابة "مكان حفظ الموتى"، وبما أن الأمر يتعلق بامرأة مخنوقة، أدخلت بالقوة فى مدخنة ورأسها إلى أسفل، فقد كانت البنات يطلقن صرخات استفظاع حين يضيف أميدى أن خلف المبنى الذى وقعت فيه الجريمة، فى فناء صغير، ترقد جثة أخرى لامرأة عجوز، مقطوعة الحنجرة، مفصولة الرأس، وكان بعضهن يغادرن الجلسة أحيانًا ولا يعدن إلا بعد أن يكشف أميدى عن لغز جريمة دافعُها السرقة باستعادة تحاليل المفتش النابهة، ولكن فى الواقع، الحكاية التى ترغب أولئك البنات فى سماعها حقًا هى حكاية امرأة حسناء تدعى أليثيا، وكنت فى وجه من الوجوه أتصور أميدى يسخر من سيدى كيباندى بالحديث عنه بطريقة مواربة، كان الشاب يقول

غالبًا "**بعد عالم أدغار ألان بو**[1]**، سآخذكن بعيدا، إلى الأورغواى، عند هوراثيو كويروغا**[2]" ويشرع فى وصف شخصية أليثيا بنوع من التلذذ، فيعلمهن أنها كانت شقراء غاية فى الجمال، حيية، فيطلقن صيحات "أوووووه" لا تنتهى، يضيف الرجل المثقف أن أليثيا كانت تحب زوجها خوردان برغم طبعه الشديد، كانا يحبان بعضهما بعضًا برغم الطباع المتضادة، وكانا يتجولان متخاصرين، لم يدم زواجهما أكثر من ثلاثة أشهر، كان ثَمّة قضاء وقدر ونهاية محتومة، صارت سماء الخريف تغيّم حبهما كنوع من اللعنة التى تحسدهما على توحّدهما، كل ذلك صار أكثر هشاشة بسبب زكام بسيط طال بأليثيا، كانت تتألم، ثم لزمت الفراش وصارت تنحلّ يومًا وراء يوم، وبدت أن الحياة تنسلّ منها، وما عاد أى شىء مثلما كان برغم عناية خوردان، وفى هذا الطور من الحكاية، ما إن يرسم أميدى ديكور بيت الزوجين حتى يعبر المستمعات ارتجاف، ثم يتحول المرح إلى ضيق، كن يصغين إليه وهو يصف بصوته الأكثر أسى منزل الزوجين خوردان وأليثيا "فى الداخل، **البريق الجليدىَ للجصّ، دونما أثر لخدش فى الجدران العالية، يعمّق ذلك الإحساس بالبرد المقلق**"، ويقرأ أيضًا فى فقرات أخرى بعدها "**حينما نمرّ من غرفة إلى أخرى، يردد البيت كله صدى الخطوات، كأن هجراً مطوّلا جعله أكثر رنينًا**"، لم يكن أحد يعلم ممّا تعانى أليثيا، أطباء كثرٌ سلّموا أمرهم، ووقع تجريب كل نوع من أنواع الأدوية دون جدوى، وأخيرًا ماتت أليثيا، بعد موتها، دخلت الخادم تنزع اللّحف وترتب الفراش،

---

(١) إدغار ألان بو: من أهم كتّاب أمريكا، ولد فى بوسطن عام ١٨٠٩ وتوفى بها فى عام ١٨٤٩، كتب الشعر والقصة والرواية والنقد. (المترجم).

(٢) هوراثيو كويروغا: كاتب من الأورغواى ولد فى صالتو الشرقية عام ١٨٧٨ وتوفى فى بوينس أيرس بالأرجنتين عام ١٩٣٧. (المترجم).

فاكتشفت مذهولة بقعتين من الدم على وسادة الريش التى كانت تحتمل رأس أليثيا، حاولت رفعها فإذا هى ثقيلة، استعانت بالأرمل الجديد خوردان ووضعاها على الطاولة، فَراها خوردان بسكين، **"تطاير الريش الفوقى، وإذا بالخادم تفغر فمها وتطلق صرخة استفظاع وهى تضع يديها المتصلبتين على عصابة رأسها"**، قرأ أميدى بعناية وبنبرة آسية، وبما أن بنات سيكيبَمْبى لم يفهمن بعد ما اكتشفه خوردان والخادم فى تلك الوسادة، كشف أميدى أخيرًا عن اللغز، وهو يلح على كل كلمة ينطقها **"فى العمق، وسط الريش، وهى تحرّك ببطء أرجلها الشعراء، كان ثَمّة هامّة بشعة، كريّة حية لزجة"**، تلك الهامّة هى التى كانت طوال خمسة أيام وخمس ليال تمتصّ دم أليثيا، أما أنا فقد قلت لنفسى إن أليثيا تلك قد تكون مطّلعة على السرّ، فهما هى سوى آدمية أكلها مثيلها المضرّ المختبئ فى وسادة الريش.

قال لى سيدى ذات يوم "فهمت، لا بدّ لنا منه، ذلك الشاب، لأنه لا يعتبر نفسه رذلا، إنه يحكى ترهات للناس، يبدو أنه يروّج عنى أنى مريض وأن ثَمّة هامّة تأكلنى كل مساء"، انتظرنا عطلة الموسم الجافّ حين يعود الشابّ من أوروبا بصناديق رواياته، وذات يوم مرّ أميدى بكوخ سيدى، أبصر كيباندى جالسًا أمامه وبين يديه كتاب فى المذاهب الباطنية، قال أميدى "سيدى الكريم، سعيد أن أعرف أنك تقرأ من حين إلى آخر" لم يجبه سيدى، أردف الشاب "قد أكون مخطئًا، ولكن تبدو لى فى حالة هزال تذكرنى بشخصية تعسة فى **"حكايات حب وجنون وموت"**(*)، فى كل عام تتدهور صحتك من سيئ إلى أسوأ، ولا أظن أن موت أمك هو الذى يجعلك على هذه

(*) عنوان مجموعة قصصية لهوراثيو كيروغا. (المترجم).

الحال، هه، لا يسعنى إلا أنصحك بعرض نفسك على طبيب فى المدينة، أرجو ألا تكون ثَمّة هامّة تتخبّأ فى وسادتك وتتغذّى من دمك بواسطة مرشفها، إذا كان ذلك كذلك، فأمامك متسع من الوقت كى تحرق الوسادة وتقتل الهامّة التى تتخبأ داخلها" لم يحر سيدى جوابًا هذه المرة أيضًا، بل إنه قدّر أن مثقف القرية يهذى، فهو يعتبر الناس شخصيات كتبه التى جاء بها من أوروبا، واصل كيباندى قراءة كتابه الذى يتحدث عن أشياء أكثر أهمية من تلك التى ترويها كتب أميدى، وعندما تجاوزه الشاب، ألقى عليه نظرة أخيرة وقال فى نفسه "سنرى من الذى سيدركه الهزال حتى لا يبقى منه سوى هيكل عظمىّ، أنا لست من أولئك الأبكار اللاتى تروى لهن حكاياتك"

عند الصبح، قام أميدى بجولته المعتادة فى الغابة، لم يكن يلبس غير تبّان، سار وهو يصفر حتى حافة الوادى حيث غطّس قدميه فى الماء، استلقى على الضفة وبدأ يقرأ كتبه الزائفة، وكان سيدى قد طلب منى التجسس عليه، والنظر فى ما يعدّه وحيدًا، والتأكد من أنه لا يملك مثيلاً قد يسبب لنا مشاكل عندما نوجّه اهتمامنا إليه، كان حذَرًا لا جدوى منه لأن أولئك الرجال الذين يذهبون إلى أوروبا، عزيزى الباوباب، يصبحون، وحق الشيهم، محدودى الذكاء إلى درجة أنهم يعتبرون ألا وجود لحكايات المثُل إلا فى الروايات الإفريقية، وهذا يسلّيهم أكثر مما يحثّهم على التفكير، هم يفضّلون الاستدلال تحت لواء علوم البيض، فقد تعلموا صيغًا من التفكير تجعلهم يؤمنون بأن لكل ظاهرة تفسيرًا علميًا، عندما رآنى أميدى أطلع من خلف أكمة قرب الوادى، وحق الشيهم، صرخ بحنق "أيها الحيوان القذر، اغرب عن وجهى يا كرة ذات أشواك، سأحوّلك

خبّيصة وأكلك مع الفلفل والمنيهوت[*] " ازداد حجمى تضخّمًا حدّ الانفجار وجحظت عيناى، ضغطت أشواكى حتى صار لها صرير وجعلت أدور حول نفسى، رأيته يمسك بعود حطب ينوى صرعى، ذكرنى ذلك بموقف بابا ماتيونغو حينما كان سيدى صانعًا عنده، قمت بريع دورة، ورحت أبحث عن وجهة ألوذ بها لاتقاء شرّه، تواريت بسرعة خلف الأكمة التى ظهرت منها، وإذا بأميدى يقترب منها، وكنت أعرفها أحسن منه، تدحرجت على الأوراق الميتة ووجدت نفسى أسفل الهضبة، وقع عود الحطب الذى رماه على بعد سنتمترات من شدقى، ولما التقيت بسيدى بعد ذلك بنصف ساعة حكيت له كيف شتمنا ذلك الشخص، وكيف أراد قتلنا بحطبة، لم يفقد كيباندى هدوءه، طمأننى بقوله "لا عليك، لن يستطيع أن يلحق بنا أى أذى، أنا لم أذهب إلى أوروبا، ورغم ذلك لست جاهلاً، **المايَمْفومْبى** يعفينا من الالتحاق بالمدرسة لتعلّم القراءة والكتابة، إنه يفتح الذهن، ويشحذ الذكاء، هذا الشخص لن يركب الطائرة ثانية باتجاه أوروبا، أنا أقول لك ذلك، إنه لنا، ومكانه تحت التراب، بالنسبة إلىّ هو مات من أمد بعيد، ولكنه لا يعرف لأن البيض لا يعلّمون هذه الأشياء فى مدارسهم"

(*) أو المانيوك: جنس جنيبات يستخرج من جذورها دقيق بشرى. (المترجم).

عند منتصف الليل، والمطر يهطل، قصدنا بيت أميدى الصغير، المحاذى لبيت والديه، وكنا تركنا هو نفسه الآخر لسيدى ممددًا على آخر حصير نسجتها ماما كيباندى، كانت السماء تشرخها بين الحين والحين بروق معشية، جلس كيباندى عند جذع شجرة، وأشار إلىّ بالذهاب فيما كان يشرب جرعة كبيرة من المايَمْفومْبى، لم أنتظر أمرًا ثانيًا لأنى كنت ناقمًا أنا أيضًا على العبقرى الصغير، ذهبت أفلح الأرض تحت باب كوخه أمهّد لى منفذًا، ولما كان المطر قد تحول إلى سيول غزيرة فقد باتت مهمتى سهلة، ففى ظرف وجيز أمكن لى أن أحفر فجوة تسمح بمرور شيهمين سمينين كسولين دون صعوبة، لَمّا دخلت الكوخ، أبصرت شمعة موقدة نسى ذلك الأحمق إطفاءها، كان نائمًا على بطنه، تقدمت بخطى صامتة حتى وصلت إلى مستوى سرير الخيزران، ولا أدرى لماذا اعترانى خوف، ولكنى استطعت السيطرة عليه، وقفت على قائمتين وتعلّقت بالسّرير حتى صرت بين ساقى أميدى المنفرجتين، تقبّضت لاختيار الشوكة الأكثر صلابة من بين عشرات الآلاف التى كانت فى تلك اللحظة تريد أن تكون فى خدمتى، وباف، أطلقت قذيفة أصابت الشاب فى صميم قفنه، وانغرزت الشوكة كاملة تقريبًا فى ذلك المخّ الذى كان يزعج

سيدى، وبالتالى يزعجنى أنا أيضًا، لم يجد أميدى الوقت لينهض، استبدت به تشنجات وفواقات متتالية فيما كنت أعتلى جسده لأسحب الشوكة بقواضمى، سللتها ولعقت دمه حتى لم يبق أثر لفعلتى، رأيت الثقب ينغلق كما كان الشأن حينما اهتممت بالفتاة الحسناء كيمينو، نططت إلى الأرض، وقبل انصرافى دنوت من الشمعة لأنى كنت أريد إحراق الكوخ، ثم قلت إن ذلك لا ينفع فى شىء، وإننى ينبغى ألا أتجاوز حدود مهمتى وإلا عرّضت نفسى لتوبيخ كيباندى، ركزت نظرى فى فضول على عنوان آخر كتاب كان المتعلم يقرؤه قبل النوم، **حكايات عجيبة**(*)، كان قد نام منجذبًا إلى عالم تلك الحكايات، وهذا أيضًا واحد من تلك الكتب التى تمكّنه من سرد الأكاذيب لبنات القرية، سوف يحكيها للأشباح، هناك، عزيزى الباوباب، يجب التزام الصدق لأن الأشباح عالم آخر، كون مغاير، ليس ثمّة من هو أشد نكرانا منها، فهى لا تؤمن بنهاية جسدها المادى، وهى تحقد على الآخرين الذين يواصلون الحياة، تحقد على الأرض التى تواصل الدوران، وهو ما يفسر أن تلك الأرواح الهائمة تظل هنا فى العالم الدنيوى على أمل الحياة من جديد، أى أن الأشباح لا تقبل أبدا أى شىء

كانت جنازة أميدى أبلغ جنائز سيكيبَمْبى أثرا، فالحدث يخالف تمامًا ما شهدته الفقيدة ماما كيباندى، ساد انطباع بأنه لا يوجد حول الجثة سوى البنات، حيث دعون صديقاتهن من القرى المجاورة لتوديعه وداعًا يليق بذلك الإنسان النادر الذى كان مفخرة سيكيبَمْبى والجهة وحتى البلاد، ثم أراد الناس أن يعرفوا ما حلّ

(*) مجموعة قصصية لإدغار ألان بو، جمعها وترجمها إلى الفرنسية شارل بولير عام ١٨٥٦ (المترجم).

بالمثقف، بعض الشيوخ قالوا إنه بالغ فى قراءة الكتب القادمة من أوروبا، وبعضهم الآخر طالبوا باللجوء إلى شعيرة الجثة التى تكشف عن قاتلها، عارض والدا أميدى الفكرة وذكّرا بأن ابنهما لا يؤمن بتلك الأمور، وستكون إهانة أن يطاف بجثته فى القرية، لذلك رضيا بتلك الميتة، ودُفن الشاب مع صندوقين من الكتب، بعضها لا يزال ملفوفًا بأسعارها بالعملة السارية المفعول فى أوروبا، وعند التأبين الذى أدّاه هذه المرة خورى قدم من المدينة وليس كاهنًا من القرية لا يوثق فى قدرته على التعبير باللاتينية، ذكر رجل الدين كيف استطاع الشاب المتعلم دحر الجهالة، وكيف بيّن أن الكتاب فضاء للحرية واسترداد الطبيعة الإنسانية، تكلم باللاتينية وقرأ صفحات مطوّلة من **حكايات عجيبة**، ثم وضع الكتاب جانبًا، وتناول نسخة من التوراة جديدة، نصبها على التابوت قبل أن يختم بصوت أشبه بصوت عنزة، "**عسى أن يسمح لك هذا الكتاب، عزيزى أميدى، أن تزداد قربا من سبل الرب التى لا ينفذ إليها أحد، وأن تفهم أخيرا أن الحكاية الأكثر عجبا حقًا هى حكاية خلق الربّ للإنسان، وأن هذه الحكاية العجيبة وردت فى الكتاب المقدّس الذى أهديك إياه لمطالعاتك فى العالم الآخر، آمين**".

ومع ذلك كان سيدى برغم المظاهر رجلاً هادئًا، كان لا يحب أن يستثار، وفى اعتقادى أنى رأيته مرة أو مرتين طرفا فى خصومة، أذكر أن الشيخ موديونغى جانى نبيذ النخل، ولعله أفضل من يجنى نبيذ النخل فى سيكيبَمْبى، كانا يعرفان بعضهما بعضا، هو وسيدى، ولم أتخيل يوما أنى سأحمل على ذلك المزارع، لنقل إن حياته كانت تُختصر فى نبيذ النخل، كان يحسن استحضار الموانغى أفضل نبيذ يمكن أن يعطيه النخل، كانت نساء القرية مولعات به لأنه النبيذ الأقل مرارة، غير أن أسوأ ما فيه أنه المرء لا ينتبه لسكره، حيث يعبّ القدح وراء القدح، ولا يعى أنه صار يقهقه كالضبع، وعند نهوضه فقط يدرك أنه لم يعد يسيطر على رجليه، فيشرع فى المشى بانحراف كالسرطان، حينئذ ينفجر الناس ضاحكين ويقولون "وهذا واحد آخر شرب موانغى الشيخ موديونغى"، وقد دأب سيدى على عادة سيئة وهى أن يمزج قليلاً من الموانغى بسائله المسارّى ليخفف حدّته، ولم يعد يجرع شرابه إلا ممزوجًا بنبيذ نخل الشيخ موديونغى، كل صباح إذن، كان المزارع يمرّ بكوخ كيباندى لتسليم لتر من نبيذ نخله، فيستعيد ذكرى ماما كيباندى ويقول كم إن الوقت يمرّ سريعًا، وهو فى الواقع يريد أن يستدرّ عطف كيباندى، أن

يحضّه على دفع نقود أكثر، وسيدى يكاد لا يرعيه سمعه، ويكتفى بتسليمه ورقة مالية مكمّشة، وكان كيباندى مقتنعا أن نبيذ النخل يضفى شيئًا إضافيّا على شرابه من المايَمْفومْبى، غير أن الشيخ موديونغى صار متقلب الأطوار، يستاء لأهون أمر، وكان كيباندى يضطر أحيانًا إلى إيقاظه كى يقصد الغابة ويجنى نبيذ النخل، وكان يغتنم إدمان سيدى ليرفّع فى سعر اللتر حسب مزاجه، شعاره خذ أو اترك، "إذا لم تكن راضيًا، فما عليك إلا أن تذهب لجنى الموانغى بنفسك، وإلا فلتدفع الثمن الذى أريد، نقطة، انتهى"، كان يزعم أن الموانغى بدأ يقلّ، وأن نخل الجهة ما عاد يعطى هذا النبيذ المميّز، وأن سيدى ينبغى أن يقتنع بنبيذ النخل العادى، وفى يوم، جاء ذلك الشيخ بالموانغى كالعادة، تذوقه سيدى فداخله شكّ، أحس أنه ليس بالموانغى الحقّ، وأن العجوز احتال عليه، لم يقل شيئًا، نادانى فى المساء وقال لى "اسمع، غدا منذ الفجر، فى الساعة التى يبيضّ فيها الريف، أريدك أن تقفو أثر هذا الأبله جانى نبيذ النخل، فى سلوكه ما يريب، أحسّ بذلك، اذهب إذن لترى كيف يعمل"، وتبعت الرجل منذ فجر الغد، لمحته يتوارى فى الغابة حتى إذا بلغ الموضع الذى ينبت فيه النخل على مدى البصر، جعل يصعد نخلة كان علّق فيها بالأمس مَطَراته، كانت ملآنة، سحبها ونزل، جلس عند جذع هذه الشجرة وأخرج من جيبه كيسًا صغيرًا، فاجأته يصبّ السكر فى نبيذ النخل الذى جناه، وكأنما كان يضمر الحقد لسيدى، بصق فى المطرة وهو يزمجر بكلمات بذيئة، نقلت ذلك إلى سيدى فى ما بعد، ولما حضر جانى نبيذ النخل أمام كوخ كيباندى ليقترح عليه ذلك الشراب الردىء، وجد نفسه أمام رجل يصفعه بالحقيقة، سمعتهما يتخاصمان، الشيخ موديونغى يريد بيع نبيذه بأى ثمن،

وسيدى يجيبه بأنه ليس بموانغى حقيقى، وراحا يتبادلان أسماء طيور مهاجرة [١]، فعيّر العجوز موديونغى سيدى، "يا هيكلا عظميًا بائسًا، أنت ميّت من زمان، أنت تحسدنى على مهنتى لأنك لست سوى مهيكل بناء تعس، أنت لا تقدر حتى على تسلق شجرة مانجو، أشخاص من نوعك هم فاشلون، مانيونجى، نجيبى، نْغوبا يا كو بولا"، لم يجب سيدى على تلك الشتائم بلهجة البمْبى، اكتفى بأن قال لجانى نبيذ النخل "سنرى، سنرى من هو مانيونجى، نجيبى، نْغوبا يا كو بولا"[٢]، ردّ العجوز موديونغى قبل أن ينصرف "سنرى ماذا، هه، ما أنت سوى شخص بائس، لا تعتمد علىّ بعد اليوم لشرب الموانغى فى هذه القرية، يا جثة بائسة، أمك تنتظرك فى القبر".

تركت سيدى مع هو نفسه الآخر، كانا نائمين على آخر حصير نسجتها ماما كيباندى، والنهار قد بدأ يطلع، وصلت إلى جذع النخلة نفسها التى صادفت فيها جانى نبيذ النخل يخرج السكّر فى مطرته ويبصق فيها، تأنّيت فى تسلقها وفى اختفائى برأسها على بعد سنتمترات من مطراته المعلقة عاليًا والتى تفيض بنبيذ النخل، وقد بدأ النحل يحيى حفلة حولها، لمحت الشيخ موديونغى قادمًا، والقلق باد على وجهه، كان ينقّل نظره يمنة ويسرة، وهو لا يفهم كيف علم سيدى بألاعيبه، أبصرته يسوّى حباله الرفيعة التى سوف يستعملها للوصول إلى قمة النخلة، ثم بدأ يتسلّق ويتسلّق، وفى منتصف المسافة أجال نظره فى الأرجاء وكأنه يتأكد ألا أحد اقتفى أثره، حينما اطمأنّ واصل تسلّقه حتى لم يعد بعيدًا عن مطراته،

(١) المقصود أنهما يتبادلان الشتائم. (المترجم).

(٢) كلام بذىء. (المترجم).

ولما رفع رأسه، وحقّ الشيهم، التقت عيناه بعينىّ المظلمتين والمتلألئتين فى آن، بعد فوات الأوان بالنسبة إليه، فقد انطلقت منى شوكتان وأصابتاه فى وجهه، زلّت قدمه، فأراد التشبث بغصن عندم هندىّ يلامس النخلة، دون جدوى، سمعته يسقط، ويخرّ على الأرض مثل كيس بطاطا ورجلاه ويداه مفرجة، وجده القرويون فى ذلك المكان بعد يوم، والعينان مفتوحتان على وسعهما، والوجه جامد، فاستخلصوا أنه طعن فى السنّ بشكل لم يعد معه قادراً على جنى نبيذ النخل، وحبّذا لو تقاعد منذ مدّة وعلّم فتيان سيكيبَمْبى كى يحلّوا محلّه.

المشكل مع يولا أنه كان مدينًا لسيدى ببعض المال، ولا شك أن هذه هى أكثر الحلقات التى يتفطّر لها قلبى حتى الآن، لأنها، لو أمعنّا النظر، هى التى كانت وراء موت كيباندى، ولكن علىّ أن أروى لك ذلك بأقل استعجال، اعترانى ضيق بعد أداء تلك المهمة، وأنا لا أتذكر وجه الضحية وبراءتها، قدّرت أن كيباندى جاوز الحدّ كثيرا هذه المرة، هل يجوز لى أن أفصح له عن مشاعرى، هه، لا حقّ للمثيل أن يحكم أو يناقش، بل لا حق له بخاصة أن يستسلم للندم بشكل يعطّل سير الأمور، وفى نظرى كانت تلك العملية أكثر ما قمنا به مجّانية، كان يولا ربّ أسرة مسالمًا، مزارعًا بسيطًا غير مهذّب، وأعماله لم تكن تسير كما يرام، كان له زوجة يحبها أنجبت له مؤخرًا طفلاً، رضيعًا لم يفتح بعد عينيه، وفى يوم، لا أدرى لماذا، أثيرت مسألة دَين بينه وبين كيباندى، فقد جاء يولا يقترض منه بعض المال، وهو فى الواقع مبلغ زهيد، على أن يسدّده فى الأسبوع الموالى، كان فى ما يبدو يريد شراء أدوية لطفله، أقسم بأنه سوف يسدد الدين فى اليوم والساعة، تذلل له، ركع عند قدميه، ذرف الدموع، لأنه لم يجد أحدًا يقرضه، رضى كيباندى أن يقدّم له خدمة، وهو الذى تناقصت مدخراته عامًا وراء عام منذ أن تخلى

عن هيكلة البناء، حتى أن الأوراق التى سلّمها ليولا كانت وسخة ومكمشة بشكل يوحى أنه أخرجها من سلة مهملات، ثم مر أسبوع ولم ير كيباندى أى شخص قادما إلى الكوخ، لم يأت يولا، فقد اختفى عن الأنظار، ولم يكن سيدى مخطئًا حينما ساوره الظن بأن الرجل يتهرب، قصد بيته بعد ذلك بشهرين وطلب منه أن يعيد إليه ماله وإلا فسوف تسوء العلاقة بينهما، وكان الرجل يومئذ سكرانًا، فجعل يقهقه فى سخرية ويشتم كيباندى، ويدعوه إلى الانصراف وجرجرة هيكله العظمى بعيدًا، وهو ما حزّ فى نفس سيدى الذى ساق له هذه العبارة "أنت تجد النقود كى تسكر وتعجز عن تسديد ديونك"، وبما أن يولا أمعن فى قهقهته الساخرة، أضاف كيباندى بجفاء وبصوت عال "من لا يملك مالا لا ينجب أطفالا"، سمح يولا لنفسه بأن يقول من بين أسنانه "وهل أنى مدين لك بشىء، هه، لقد أخطأت الشخص، اخرج من أرضى"، ساندته فى ذلك زوجته فأمرت سيدى بالانصراف وإلا ذهبت لاستدعاء أحد حكماء مجلس القرية، وعندما عاد سيدى مغتمّا، رأيته يكلم نفسه، ويردد لعنات، كنت أعلم أن لولا سينقلب إلى أسوأ منقلب، لم أر قطّ سيدى فى تلك الحال، حتى يوم أن عيّره ذلك الشاب الدّعىّ أميدى بالمرض، نادانى على الفور، ثمة أمر عاجل، لم يعد بوسعه أن ينتظر، سيعلم يولا من أى معدن هو، وفى منتصف الليل، وبعد أن تجرع كيباندى كمية كبيرة من **المايَمْفومْبى** دون مزجه هذه المرة بالموانغى، كنا على أتم الاستعداد، ولأول مرة رافقنا هو نفسه الآخر لسيدى، دون أن أدرى بالضبط ما سوف يكون دوره، وصلنا نحن الثلاثة إلى ضيعة المزارع، كانت بيته بالغ الضيق حتى أن الحمار يمكن أن يدخله من ثقوب واجهاته الأساسية، جلس سيدى عند جذع عندم هندىّ،

وجلس هو نفسه الآخر خلفه وهو يدير لنا الظهر كعادته حينما يكون فى حالة حراك، طفت بالكوخ ودلفت إلى غرفة النوم، لمحت يولا نائمًا يشخر على حصير فيما كانت زوجته على السرير فى الطرف الآخر من الغرفة، ولا شكّ أن الأمور تجرى على هذا النحو كلما كان الرجل سكرانًا. عبرت الغرفة واتجهت إلى غرفة الرضيع، ما إن دنوت منه حتى صار قلبى يعصر، أردت أن أنكص على عقبىّ ولكن هو نفسه الآخر لكيباندى كان خلفى، تساءلت لماذا قرر سيدى التهجم على الطفل عوضًا عن الرجل الذى أقرضه المال، أو زوجته إن اقتضى الأمر وهى التى تجاسرت على الوقوف إلى جانب زوجها عندما نشب بينهما الخلاف، صارت أشواكى ثقيلة، كسلانة، قلت فى نفسى إنى لا أستطيع أن أطلق منها واحدة، لم أعتدِ على طفل حتى اليوم، وكان لزامًا علىّ أن أبحث عن دافع لكى أقوّى إصرارى وأعيد لأسلحتى طاقتها، ولكن أى دافع أجد، لم يبد لى أى شىء، وفجأة قلت فى نفسى إن سيدى على صواب حينما ذكّر ذلك الرجل بأن من لا يملك مالاً لا ينجب أطفالا. تذكرت أيضًا أن الشيهم العجوز الذى كان يسوسنا اعتاد فى ذلك الوقت أن يجاهر بأن البشر سيّئو الطّوية، بمن فيهم أطفالهم، لأن "**صغار النمر لا يولدون بلا مخالب**"، وكان لا بدّ من إلصاق إحدى الرذائل بيولا، أن أجد له علّة لا تغتفر، أعدت فى سرّى أن هذا الرجل سكّير، وأن ولده المسكين سوف تكون حياته بائسة مع مزارع غير مهذب، تمتمت هذه الحجج وكأنى أطرد موجة التبكيت، كأنى أدرأ الشفقة التى تنوّم أشواكى، أشواكى التى استعادت فجأة قوتها، صرت أسمعها تدمدم، وصار غضبى من غضب سيدى، كأن يولا مدين لى بمال، ولم أعد أدرك أن الكائن الذى أمامى ليس سوى برىء مسكين، كنت أقول

لنفسى بالعكس عمليتنا سوف تحرره وتريحه، يولا لا يستحق أن يكون أبًا وهو السكير الذى لا يفى بدَينه، والذى قد يكون مدينًا بالمال لكل الأهالى، فى تلك اللحظة من التفكير تقبّضت، وإذا شوكة متينة تنفصل عن ظهرى لتصيب الطفل المسكين، كان هو نفسه الآخر لسيدى قد اختفى، ولعله حضر ليزيد فى تحريضى على التجلد وقت العمل، غادرت المكان بسرعة لأتجنب الكآبة، لا ينبغى بخاصة رؤية طفل برىء يفارق هذا العالم بسبب غباء والده وعدم اكتراثه، وما كنت أريد أن أشهد ذلك المشهد، وبرغم ذلك لم أكن مرتاح البال، كنت خجلاً من صورتى حينما تنعكس على الوادى، حضرت الجنازة على أمل المغفرة، وسمعت ذلك الجمع الصغير يرتّل أناشيد مأتمية فذرفت عبرات خلال الأيام التى عقبت تلك الحادثة، ظلّت صورة طفل لولا تعتادنى، تتلبّس بى، وبدأت أخاف من طيفى فى وضح النهار، أقول فى نفسى إن شبح ذلك الرضيع يترقبنى عند أول أكمة، ربما كان ذلك قد بدأ يثقل ضميرى، عندما انسحبت إلى الغابة شرعت أنظر فى النتائج، قمت بتحليل الأفعال الأخرى الأقل خطورة، الخطرة قليلا، الخطرة، وخصوصًا الخطرة جدًا مثل موت ذلك الطفل، ومرّت أمامى وجوه ضحايانا، كنا قد قمنا بتسع وتسعين مهمة حتى الآن، ولكن لم يكن يشار إلينا بأى ظن، كان سيدى يتنصّل دائمًا بفضل حبّة الجوز الكرنبى التى يولجها فى شرجه، ولا أدرى لماذا، من بين ضحايانا كلها، طفل يولا وحده يمنعنى من التفكير فى أمر آخر، كانت الأمور تجرى وكأنه يتجسس علينا، يتربص بنا فى أول منعطف، فى النهاية، قلت فى نفسى، ما هو إلا بشر صغير جدًا بلا قوة ولا نفوذ، أتذكر أيضا أن سائسنا العجوز كان يحذرنا من أعدائنا الأصغر حجما فهم أكثر من يُخشى

شـرّهم، ولـذلـك يـحـدُث أن أقـول لـنـفـسـى إن ذلـك الـرضـيـع يـبـعـث لـى بـرسـالـة، ويـدفـعـنـى إلـى الـتـمـرد، وإنـه يـكـفـى أن أضـع حـدّا لـحـيـاتـى كـى أوقـف سـلـسـلـة مـهـمـاتـنـا، أو أن أتـمـرد عـلـى سـيـدى فـأقـف فـى وجـهـه أو أتـوارى دون تـرك أثـر، ولـكـن قـوة كـانـت تـشـدّنـى وتـمـنـعـنـى حـتـى وإن كـان إحـسـاس بـداخـلـى يـحـذرنـى مـن أن المـهـمـة المـائـة سـتـعـود عـلـيـنـا بـالـوبـال، سـتـكـلـفـنـا حـيـاتـنـا دون شـك، قـد يـكـون ذلـك مـجـرد قـلـق وضـيـق، كـنـت مـقـتـنـعـا بـأن كـيـبـانـدى، مـن نـاحـيـتـه، لا يـقـوم بـمـحـاسـبـة، كـان يـسـلـم نـفـسـه للانـتـشـاء، لـنـشـوة **المـايَـمْـفـومْـبـى**.

لما كانت الضحايا تتراكم، فقدتُ لذة إطاعة سيدى، وكان يضطر إلى الصراخ أكثر من مرة، وإلصاق هو نفسه الآخر بأعقابى، وتهديدى بالموت، كنت أعرف مع ذلك أنه لا يستطيع تنفيذ تهديده الأخير، لأن ذلك معناه هلاكنا معا، وهكذا، عزيزى الباوباب، أصاب الوهن عملياتنا الليلية.

كانت أنظار الأهالى تنصبّ على سيدى الذى بدا كأنه لم يعد يؤدّى عمله إلا كما يؤدّى العمل المعتاد، ثم وجدنا صعوبة فى القيام بالمهمة المائة، الإخفاقات صارت لا تحصى، وأشواكى باتت أقل فاعلية، كثيرًا ما تخطئ مراميها، كما حصل مع تلك المرأة التى تدعى ما مّبورى، حيث أصبتها فى ربلة ساقها، لم تلحق بها أشواكى أى أذى، وكان يمكن أن يلفت ذلك نظر كيباندى، إلا أنه كان يرغب أن أعيد الكرّة، وهو أمر غير معقول وحتى متهور أن نهاجم مرتين الشخص نفسه، أعرف أن لتلك المرأة شيئًا ما، هى ليست كائنًا عاديًا، وقد أفهمتنى بذلك حينما سألتنى عدة مرات من أرسلنى، ومن هو سيدى، ولا يلقى هذا النوع من الأسئلة ألا مطّلع على السرّ، وعندما أفكر فى العجوز مّبورى، أقول لنفسى مرة أخرى لو

ضاعفنا احتياطنا لما كان سيدى يتعفّن الآن تحت التراب، ولكن تلك العجوز مُبورى، ولتعلم ذلك، كانت حكاية أخرى، أنا على يقين من أنها أكلت بعض الناس فى القرية، ثم لماذا أتحدث عنها بصيغة الماضى والحال أنها لا تزال حية ترزق، هه، لقد فقدت أسنانها، وهى تترك بابها مفتوحًا كامل الليل، وتبدى عريها كعلامة لعنة حين يسىء إليها الصبية الأدب، فيفرّون هاربين لأن رؤية ذلك المشهد قد تصيبهم باللعنة إلى الأبد، كانت تنهض على ساقين كسيحتين وجلد عظاية هرمة، لم يكن بينها وبين سيدى سوابق، إلا أن كيباندى كان يعتقد أنها تتبين ما نفعله أثناء الليل، أى أنها مصدر إزعاج، فهى إذن تشكل خطرا لا بدّ من إزاحته، وهو أمر سهلٌ قولُه صعبٌ إنجازه، حتى وإن كان بابها يظل مفتوحًا يوم ذهبت للقيام بمهمتى، كان ذلك فى الشهر الماضى، كنت وحيدا، لم يرافقنى حتى هو نفسه الآخر لسيدى، إلا إذا كان مختفيًا فى مكان ما بغير علمى، كانت ما مُبورى فى كوخها، ولما دخلت وجدت ما يشبه ليلا يعشى بصرى، لم أكن أبصر شيئًا، لا أتبين طيف العجوز فى الركن إلا حدسًا، وأشواكى جامدة لا تتحرك، وكان علىّ رغم ذلك أن أمضى فى أداء مهمتى، عندئذ سمعتها تهمس "تعال إذن أيها الحيوان القذر، سوف تعرف من هى ما مُبورى، سأريك عورتى"، كانت ترانى، أما أنا فلم أكن أميز منها شيئًا، أردفت "الخدع التى تقوم بها فى هذه القرية مع ذاك الذى أرسلك لن تفعلها معى، لقد أخطأت المرمى، أيها الغبى التعس"، بدأت أشعر بالخوف، وأردت الرجوع على عقبىّ فيما خيل إلى أن الباب خلفى انغلق، صار أشبه بجدار، أعرف طبعًا أنها خدعة، "من هو إذن سيدك، هه، الذى بعثك هنا، إنه كيباندى مهيكل البناء، أليس كذلك، إنه هو، هه"، صاحت فى وجهى، وبما

أنى لا أجيب، تناهى إلى سمعى صرير السرير، نهضت ما مُبورى، تلك الخرقة البالية صارت الآن تتقد حيوية، "قل لى بنفسك من هو سيدك، أنتما لم تأكلا أشخاصًا مثلى فى هذه القرية، هه، رضيع يولا، أنتما وراءه أيضًا، هه"، عندها، وحق الشيهم، كان علىّ أن أتهيّأ، فقد كانت تمسك فى يدها شيئا ما، ساطورًا، قلت فى نفسى دون أن أكون على بينة، أعددت إحدى شوكاتى، ووجهتها نحوها، سمعتها تصرخ "أيها الحيوان القذر، ماذا فعلت لى فى ربلتى، هه، انتظر أن أمسكك "، بحثت عن مخرج فى تلك الظلمة المعشية، ثم جريت مندفعًا نحو الباب، وخرجت، وخرجت العجوز خلفى محمولة بتينك الساقين الهزيلتين اللتين صارتا فجأة خفيفتين، ظلت واقفة تتكلم عند مدخل الكوخ، " أنتم أرواح السوء فى القرية، أنا أراكم فى الليل، أنتم أشرار هذه القرية وسحرتها، حينما أترك بابى مفتوحًا كما هو الآن، فلأننى أنصب لكم فخا، حاول أن تعود إذن، وسوف ترى عورتى عن قرب"، كنت قد ابتعدت، وقلبى يخفق بقوة، لو كانت لى شجاعة لأعلمت سيدى بأننا بلغنا حدود نشاطنا، فلا ينبغى أن نتجاوز الخط الأحمر، ولكنى لم أقل شيئا مع الأسف، كل ما فى الأمر أن كيباندى حلّفنى، كان فظا معى، نسى تفانىّ، والخدمات التى أديتها له حتى اليوم، عيرنى بأنى لا أصلح لشىء، وهددنى بالموت مرة أخرى، فى ذلك اليوم فهمت علاقته مع هو نفسه الآخر، فقد أرانى بإشارة من إصبعه هو نفسه الآخر الممدد على آخر حصير نسجتها ماما كيباندى قبل أن يختم "أرأيت ذلك الشخص النائم، هه، إنه يزداد جوعًا كل يوم خلال المدة الأخيرة، وليس الآن وقت الخبطات العشوائية كما فعلت، هذا الشخص لا بد أن يأكل، وإلا فسوف ندفع الثمن غاليًا، أنت تجهل أنى أنا الذى يتحمل العبء

كله كلما أحس بالجوع"، وذكرنى بوجوب تدارك ما فات، والتهجم هذا المرة على أسرة مونجولا، وهما زوجان قدما أخيرًا إلى سيكيبَمْبى مع ولديهما، توءمان أساءا إليه الأدب فى ما يزعم، ولم يكن سيدى يعلم ساعتها أنه وقّع على شهادة وفاته حين كلفنى بتلك المهمة، التى كان يمكن أن تشكّل النجاح المائة، عفوًا، الحادى بعد المائة لأننا سوف نصيب رميّتين برمية واحدة.

كم يمضى الوقت سريعًا، وحق الشيهم، صوتى مشروخ والليل قد أرخى سدله على سيكيبَمْبى، وها أنا أبكى دون أن أدرى لماذا، لأول مرة تكبس علىّ الوحدة، أحس أنى مذنب لأنى لم أفعل شيئًا لإنقاذ سيدى، هل كنت أقدر على ذلك فى مواجهة ذينك الطفلين اللذين أساءا إليه قبل بضعة أسابيع من وفاته، هه، لا أدرى، كنت أريد أولاً إنقاذ حياتى حتى وإن كنت على يقين من أن موت كيباندى سينجر عنه موتى، فى تلك الحال، يكون البشر على حقّ عندما يؤكدون أن جبانًا على قيد الحياة خير من بطل ميت، لنقل إنى لست مسكونًا بالحزن الذى يسببه غياب كيباندى، ولم أتحرج من الحظ الذى جعلنى أنعم بالحياة حتى الآن، أنا خجل مما رويت لك منذ هذا الصباح، لا أريدك أن تحكم علىّ دون أن تضع فى حسبانك أنى لم أكن سوى تابعٍ، ظلٍّ فى حياة كيباندى، لم أتعلم قطّ عصيان الأوامر، كل شىء كان يجرى كما لو أنى واقع تحت الغضب نفسه، الحرمان نفسه، الحقد نفسه، الغيرة نفسها التى تستبدّ بسيدى، ولا أحب عقليتى الحالية لأن وجوه ضحايانا لا تنى تسكننى، أولئك الأموات هم فى وجه من الوجوه ماثلون أمامى، يحاصروننى، يتربصون بى، يشيرون إلى بالأصابع، أستطيع أن أقرأ على جباههم الدوافع التى

قادتنا إلى وضع حد لحياتهم، يمكن أن أخصص سنة كاملة لأحدثك عنها، لقد أكلنا مثلا الشاب أبيبا لأنه سخر من نحول سيدى حينما فاجأه فى شبه عرى على ضفة الوادى، كان مسألة لا تغتفر، صدقنى، وأكلنا أزَلاكا لأنه دنّس قبر ماما كيباندى بعد أن وصم سيدى بالساحر، وتلك قلة احترام، فللموتى حق السكينة، وأكلنا إيكونُنّغو لأنه سمح لنفسه بالدفاع عن مدنّس قبر ماما كيباندى، أى أنه تضامن مع أفعال ذلك المدنّس، وأكلنا لومّوامو لأنها رفضت مغازلة سيدى على رؤوس الملأ فى حانة لو ماريغو، والحال أنها هى التى أشعلت رغائبه ثم زعمت أنه هو الذى ذهب به ظنه بعيداً، فلم تكن المسألة فى نظرها سوى لعبة، وقالت أيضًا إن كيباندى يجب أن ينظر إلى وجهه فى المرآة قبل أن يحادث امرأة مثلها هى، أنت ترى أن كلامًا كهذا لا يُحتمل، وأكلنا الشيخ مابيلى لأنه كان ينشر الأكاذيب عن سيدى، فقد نسب إليه سرقة ديك أحمر على ملك شيخ القرية، وهذا ليس صحيحًا لأن أطفال القرية هم الذين يقترفون هذا النوع من السرقات، وأكلنا موفُنّديرى لأنه كان من بين من دعوا إلى قيام كاهن تيمىّ بتطهير القرية، ليخلّصها من كل المثل المضرّة، من يحسب نفسه، هه، خصوصًا وأن سيدى لا يريد أن يقضى مثل أبيه، وهو يتذكر الكاهن تَمْبى ـ إسّوكا الذى كان سببًا فى موت بابا كيباندى، وأكلنا لوفونو لأنه كان يعترف برؤيته حيوانًا غريبًا يشبه الشيهم خلف كوخ سيدى، كان يقول أشياء من قبيل "من جانب كان أشبه بشيهم، قلت لكم، ومن الجانب الآخر، إنه لأمر غريب، لم يكن حتى مثل الشيهم، أردت أن أقول إنه حيوان غريب، نظر إلى كما ينظر إنسان إلى إنسان آخر، وأرانى مؤخرته قبل أن يتوارى خلف ورشة مهيكل البناء، أقسم لكم أنى لم أحلم،

صدّقونى"، ذلك الشخص كان محقًا فى كلامه ولكنه ارتكب خطأ بنقله الحادثة إلى شيخ القبيلة الذى جاء يطرحها على كيباندى وهو يوجه إليه إصبع الاتهام، أكلنا إيكونْدا سَكادى لأنه رأى سيدى يحادثنى فى دغل قرب قبر ماما كيباندى، هو أيضًا نقل الحادثة إلى شيخ القرية، أكلنا الحكيم العجوز أوتشومْبى لأنه اعترض على ترشح كيباندى لمجلس القرية بدعوى أن سيدى غريب ويبقى غريبًا، وهو ما حزّ فى نفسه، وهو الذى لا يألو جهدا كى يظهر للقرية أنه متساكن عادى، أكلنا البقال كومايايو باطوباطَنْغا لأنه رفض أن يبيعنا بالدّين مسرجة زوابع وعلبتى سردين بالزيت من صنع المغرب، وهذا ظلم لأن أهالى القرية كلهم يشترون منه بضاعته بالدّين، أكلنا العجوز ديكامونا لأنها كانت تروح وتجىء بشكل مريب كل ليلة قدام كوخ سيدى، كانت فى الواقع تريد أن تفاجئنا نحن الاثنين، أنا وسيدى، منذ أن فشت فى القرية إشاعة مفادها أن لكيباندى شيئًا ما، فى الحقيقة، وحق الشيهم، كنا بدأنا نأكل الناس لأوهى سبب، لأنه كان ينبغى إطعام هو نفسه الآخر لسيدى، وعندما يشبع ذلك الكائن العديم الفم والأذنين والأنف، يلزم آخر حصير نسجتها ماما كيباندى لا يفارقها، يهرش جسده ويضرط، فلا يوجد أبدًا شخص عادى يشعر بمثل ما يشعر به هو من جوع، وحينما أراه ممددًا على الحصير، أستطيع أن أعرف أنه جائع، لأنه يلتفت فجأة، يدحص الأرض برجليه طوال نصف ساعة قبل أن يتجمّد مثل جثة.

إذا كان بعض الضحايا لا يطول بها المقام بذاكرتى، فذلك لأن المهمات التى كنت أؤديها حينئذ، عزيزى الباوباب، تعود إلى مدة تدربى الطويلة، كنت أعتبرها متماثلة إلى حدّ جعلنى ربما أخلط بعضها ببعض فى سردى الذى قمت به حول العمليات التى تبدو فى

نظرى أهم ما فى مسيرتى كمثيل مضرّ حتى أصل إلى المهمة الأكثر من خطيرة ليوم الجمعة الماضى.

تتراءى لى تلك الأسرة التى حطت رحلها حديثًا فى سيكيبَمْبى، يتراءى لى الطفلان وهما يجريان ويصرخان ويبدوان موجودين فى كل مكان فى الوقت نفسه، وكنت أعتبر تلك المشاهد مثل تحذير، كنت أريد تنبيه سيدى، وقد بدا أن له فكرته، وخطته الجاهزة بإحكام، لم يكن يحتمل وقاحة ذينك الصغيرين، كان يهمس بكلام لاذع ضدّهما، وهو يبحث فى الواقع عن عذر، عن دافع يجعله يصفى حسابه معهما نهائيا، إلا أن الأمور جرت بطريقة مغايرة .

كان سيدى مأخوذا بظمئه **للمايَمْفومْبى** والنهم الذى لا يُشبع لِهو نفسه الآخر، مما جعله يهمل بعض المحظورات البدَهية التى يلتزم بها كل من حازوا مثُلا مضرّة، من ذلك مثلا عدم التعرض للتوائم، صار يتصرّف باستهانة تذهلنى، كان الحذر من جانبى، فيما كان هو مقتنعًا بأن تحدى تلك المحظورات سوف يرفعه إلى القمة، كأنما كان يسعى وراء الرقم القياسى الذى ضربه أبوه، وهو ما جعله لا يهدأ له بال منذ أن نزلت عائلة مونجولا بسيكيبَمْبى، وكان ربّ العائلة، منذ حلوله هو وعائلته، لا يخفى خيلاءه، كان يجول بولديه فى الشارع كأنه يُرى القرويين كم هو محظوظ بكونه أبا لتوأمين، وكان يسخر من شكاوى الناس الذين يعزون إلى الطفلين ما يصيب حقولهما من أضرار شتى، لم يكن كيباندى يعرف تلك الأسرة إلا لماما، فقد ارتأى شيخ القرية تقديم السكان الجدد للأهالى، سار مع الشارع الرئيس، توقف عند باب كل كوخ وردد "بابا مونجولا نحّات، زوجته ربّة بيت تعتنى بتوأميها، طفلين فى غاية اللطف"، كانوا يسكنون فى الطرف الآخر من القرية، ويندمجان مع بقية الأهالى يومًا بعد يوم حتى ليخيّل أنهم يعيشون هنا على الدوام.

تعرفت إلى ذَينك الطفلين المزعجين فى ظروف سيئة جدًا، هما توأمان لا يملكان فى الحقيقة أى علامة تسمح للملاحظ الأكثر فطنة أن يفرّق بين هذا أو ذاك، كان والداهما يناديانهما بلا تمييز كوتى أو كوتاى بما أنه يكفى أن تنادى أحدهما كى يلتفتا معًا فى اللحظة نفسها، ولكن فى الحقيقة كان بابا وماما مونجولا يجدان لذة فى بث الفوضى فى أذهان القرويين، فهما يميّزان بين هذا وذاك بفضل شىء خاص بهما، ذلك أن بابا وماما مونجولا لم يقررا ختان سوى طفل واحد، ويقال فى القرية إن أكبرهما هو المختون، وفى كل مرة تشتبه خلالها الأمور على الوالدين يعرّيان ولديهما ليعرفا من منهما جاء إلى الدنيا قبل الآخر، أؤكد لك أنهما آدميّان صغيران يكادان لا يبلغان عشرة أعوام أو أحد عشر عاما، كائنان لا يفترقان، يرمُشان، يهرشان جلديهما، يسعلان، يضرطان، يُجرحان، يبكيان أو يمرضان فى الوقت ذاته، كيانان متماثلان ينام أحدهما بين ذراعى الآخر حتى الفجر، ويجلسان لاويين أرجلهما بالطريقة نفسها، وكأن والديهما يرغبان فى زيادة اللبس، كانا يكسوانهما بزىّ متماثل، السراويل القصيرة ذات الحمالات الزرقاء، والأقمصة القطنية ذات اللون اللبنى، كان لكل منهما رأس كبير فى حجم الآجرة المشوية، فبابا وماما مونجولا كانا يحلقان لهما جمجمتيهما تمامًا، وهو ما يعنى أنهما، بتلك العيون البارزة، غير جميلين، كانا لا يختلطان بالأطفال الآخرين إلا ما ندر، يقطعان القرية جريًا، ويميلان إلى اللعب قرب المقبرة، فى حقل ملتويات شاسعٍ حيث ينقلان صلبان القبور ويقلبان شواهدها، ويلعبان لعبة التخفى، ويطاردان الفراشات بلا هوادة، ويسومان طيور الدورىّ الويل باستعمال مقلاعيهما الرهيبين، لا يمكن ضبط تصرفاتهما، فهما

يهلاّن دائمًا حيث لا يتوقعهما أحد، قلت لك إذن، أول مرة صادفت فيها كوتى وكوتاى وقفت أشواكى فى حالة تأهب، كان التوأمان يريدان اتخاذى لعبة لهما حالمًا أبصرانى أدرج فى حقل الملتويات، كنت عائدًا من مخبئى وبقيت أستريح قليلاً على قبر ماما كيباندى، وأستعدّ لأذهب للتسكّع خلف ورشة سيدى القديمة، وربما أتصفح بعض الكتب دون أن أبتعد كثيرا عن كوخ كيباندى، حتى أكون طوع يده إذا ما احتاج إلى، سمعنى الطفلان أحرك أوراق النبت، التفتا، وأشار أحدهما بإصبعه نحوى "شيهم، هذا شيهم، لنقبض عليه"، وكان الطفل الآخر قد شرع يسلّح مقلاعه، فاستدرت على عجل، وحق الشيهم، فيما القذائف تنهمر علىّ وتسقط قريبا منى، تساءلت من أين خرج هذان العفريتان اللذان يحملان رأسين فى غاية الاستطالة، قدّرت أنهما شبحان صغيران سمح لهما والداهما، من تحت اللحود، باللعب خارج القبر والعودة قبل غروب الشمس، ولكن هذين التافهين قاما بملاحقتى، سمعتهما يباعدان الملتويات، ويطلقان صيحات الفرح، ويمرحان مثل أقزام عيد شعبىّ، أحدهما أعطى أمرًا للثانى بالاتجاه نحو اليمين فيما بقى هو على اليسار حتى يباغتانى على مسافة بضع مئات من الأمتار، ولكنهما كانا يجهلان أنى أفهم لغة البشر، بذلك أحبطتُ خطتهما، تكورت حول نفسى وتدحرجت بسرعة مذهلة، وهبطت على سرير من السرخسيّات الميتة، رأيت أمامى أشواكا متشابكة، فاندفعت نحوها دون التفات حتى نفذت إلى فرجة تطل على الوادى، ودون سابق تفكير، ارتميت فى الماء الذى لم يكن عميقًا جدًا فى ذلك الموضع، وتنفست كالمحتدّ، وبلغت الضفة الأخرى بسرعة، نفضت أشواكى، وأنا أرتجف من الخوف أكثر من البرد، كانت القرية على مرمى

البصر، ولم أعد أسمع حركة خلفى، فاستخلصت أن الطفلين عادا أدراجهما، لم أكن واثقًا من أنهما يسكنان سيكيبَمْبى، ولكن بعد عدة أيام من تلك الحادثة، حينما لمحتهما يعبران الطريق الرئيس مع والدهما، تحققّت من رأسيهما المستطيلين ولباسهما المتماثل.

يوم الثلاثاء الماضى، عند الظهر، تخلص كوتى وكوتاى مرة أخرى من رقابة والديهما، مرا بكوخ سيدى وكان جالسًا قدام الباب يلتهم كتابا فى المذاهب الباطنية، وكان التوأمان لا يكفّان عن الظهور بهذه الطريقة منذ أيام، حيث يقفان قبالة مسكنه، فى المكان نفسه الذى كان سيدى قد رأى فيه قطيع غنم يوم موت ماما كيباندى، بدا أنهما يرقبانه، يقلدان آنة خروف يُذبح، فيقهقهان ثم يتواريان، وانتهى الأمر إلى انزعاج سيدى من هذا السلوك، وكان واثقا من أنهما مبعوثان من قبل والدهما لمضايقته، حتى حين يحاول الاقتراب منهما ليخاطبهما ويدعوهما إلى وجوب احترامه، يطلقان سيقانهما للريح، ثم يعودان من الغد للوقوف فى الموضع نفسه وتقليد الخروف الهرم، لاحظت سيدى يفقد طمأنينته، ويطرح على نفسه ألف سؤال وسؤال، ذانك الطفلان كانا يريدان إبلاغه شيئا ما، كانا يعلمان أمرًا ما يخصّنا، ومن ثَمّ، فى يوم الثلاثاء ذاك، كان كوتى وكوتاى واقفين كالعادة قبالة مسكن سيدى، افتر فم سيدى عن بسمة، فلم يردا عليها، "ماذا تريدان، هه"، قال سيدى بعد صمت، أجابه أحد ولدى مونجولا "أنت شرير، لذلك لا تحب الأطفال"، أفحم الردّ سيدى فأردف "يا لكما من ولدين فاسدين، أنتما غير مهذبين، لماذا تنعتاننى بالشرير، هه، هل تعلمان أنى يمكن أن أخبر والديكما بذلك"، أضاف الطفل الآخر "أنت شرير لأنك تأكل الأطفال، نحن نعرف أنك أكلت رضيعًا، قال لنا ذلك بالأمس حينما كنا نلعب فى

المقبرة، بالمناسبة سيعيد علينا ذلك هذا المساء". أغلق سيدى كتابه بحركة متوترة، لم يستطع كتمان غضبه، نهض يطلق الشتائم "يا عصابة الهوامّ، يا طيور الشؤم، يا قمّلا قميئا، سأعلمكما كيف تحترمان الكبار"، حاول أن يجرى خلف التوأمين فإذا أحدهما يصيح به " بل إن الرضيع الذى أكلته، طلب منا أن نقول لك إنه يراك، وإنه سيأتى للقائك، بسببك أنت ما عاد يكبر"، وفرا هاربين، رآهما كيباندى يتواريان عند الأفق، فقال فى نفسه لا بدّ مما ليس منه بدّ أن يقابل والدَى هذين الكائنين.

ذهب سيدى إلى عائلة مونجولا فى آخر عشية يوم الثلاثاء ذاك، كان الأب ينحت قناعا ذا ملامح قبيحة، والأم تعدّ طبقًا من أوراق المانيهوت بالموز اللاصف(*)، فوجئ الزوجان بقدومه لأنه لم يجتز مرة عتبة بيتهما، توقف الأب فجأة عن عمله، وسارع بالإشارة إلى مقعد من العارشات للزائر، فيما حييته الأم عن بعد، سألا كيباندى هل يريد كأسًا من نبيذ النخل، قال لا حتى وإن كان من الموانغوى، جاءته الأم بقليل من الماء فى كرنيب قبل أن تنسحب وتترك الرجلين يتجادلان، كان سيدى يمد نظره إلى داخل الكوخ عسى أن يلمح الطفلين، ولكنهما كانا غائبين، لا شك أنهما يطوفان فى القرية، ربما قرب المقبرة، فى حقل الملتويات، كشف كيباندى عن موضوع زيارته بعد حديث عام عن هيكلة بناء بيت مونجولا الذى بدا لسيدى أنه ليس مبنيًا كما ينبغى، ثم دخل فى صميم الموضوع، "توأماك يأتيان لإزعاجى منذ أسبوعين، وقد جاءا اليوم بعد الزوالَ لاستفزازى"، بعد صمت قصير، أجاب بابا مونجولا "أعرف، أعرف، إنهما ولدان مزعجان، سأحدّثهما فى الأمر، هما يحوّمان دائمًا ذات

(*) أو لسان الحَمَل: نوع من الموز من جنس نباتات عشبية معمرة، تؤكل ثماره مطبوخة كالخضر (المترجم).

اليمين وذات الشِّمال، ولست الوحيد الذى يشتكى منهما، ولكنك تعرف أن الأطفال فى هذه السنّ لا يقدّران عواقب أفعالهم"، عندئذ شرح له سيدى كيف نعته الطفلان بالشرّير، وكيف أنهما لا يوجهان له حتى التحية، وكيف تفوّها نحوه بكلام يفضّل أن يكتمه احترامًا لوالديهما، كان بابا مونجولا يتملّى كيباندى وعلى وجهه علائم الشفقة، وربما قال فى نفسه إن ولديه يسخران من هزال سيدى، وإن ذلك الهزال بدا لهما من الغرابة ما جعلهما لا يخفيان ما فى سريرتهما، فى الوقت نفسه، وفيما كان بابا مونجولا يسأل كيباندى عما قاله ولداه بالضبط، أقبل كوتى وكوتاى وملابسهما تغطيها الأتربة، لم يلقيا سوى نظرة عابرة على أبيهما وضيفه، فقد خيّرا التوجه نحو أمهما ليجهرا بأنهما جائعان، كانت القدر لا تزال على النار، قالت الأم "هذه نتيجة التسكع فى القرية كامل النهار، الأكل ليس جاهزا"، ناداهما بابا مونجولا بلهجة آمرة "كوتى، كوتاى، تعاليا لتقدما اعتذاركما لعمّكما كيباندى، حالاً، هو ليس بشرّير، لا أحب أن تسيئا الأدب إلى الكبار"، اضطر الطفلان طوعا أو كرها إلى المجىء، قال الأب للأول "صافحه، إنه عمّك، كل كبار القرية أعمامك، لا بد أن تحترم عمك كيباندى كما تحترمنى، له الحق فى أن يعاقبك بردفة إذا أسأت الأدب تجاهه مرة أخرى"، مدّ كيباندى يده الناشفة الناحلة فرازها كوتى، وربّما كوتاى، بارتياب واشمئزاز قبل أن يمدّ يده هو أيضًا، ركز الطفل عينيه فى عينى كيباندى، وران ما يشبه الصمت، كان للطفل نظرة قاسية، وفجأة تغيرّت ملامحه وبدت أكثر طراوة وأكثر شبابًا، وتغطى الرأس الأجرد بشعر أملس، وصار أكثر استدارة، تملك سيدى إحساس بشحنة كهربائية تعبر جسده، ورأى رأس وليد يولا بدل رأس التوءم الذى يصافحه،

"لا تنظر إلى الكبار بهذه الكيفية"، قال بابا مونجولا، وعند مصافحة يد التوأم الآخر، تبدّت لسيدى نفس الرؤيا، دائمًا رأس ذلك الرضيع الذى أكلناه، نكس بصره بسرعة، دون أن يلحظ بابا مونجولا شيئًا، اعتذر الطفلان لسيدى، وتمتما فى نوع من السخرية "إلى اللقاء، عم كيباندى، نراك يوم الجمعة"، وبالنبرة الساخرة ذاتها قالا معا، "ليلة هانئة، عم كيباندى"، عندئذ تنفس بابا مونجولا نفس ارتياح وهو فخور بسلوك ولديه "سترى، إنهما طفلان ممتازان، من السهل على المرء أن ينجذب إليهما، وسوف يأتيان كل يوم للعب فى فناء دارك، حالمًا يسود التفاهم بينكم"، ولكن كيباندى كان قد طوّف بعيدًا فى أفكاره، فقد شغل رأس الرضيع ذهنه، لم يعد يجرؤ على النظر إلى التوأمين، أدرك أن الوقت حان كى يهتم بهذين الكائنين اللذين لهما وحدهما، فى الظاهر، علم بأنشطتنا الليلية، لذلك اعتذر عن العشاء الذى عرضته عليه عائلة مونجولا، وتعلل بعمل عاجل يجب إنهاؤه قبل هبوط الليل، وانصرف دون التفات، كان يكلم نفسه وهو يمشى، عثر فى حجر حتى كاد يقع، جعل يشرب المايَمْفومْبى كامل الليل، سمعته يضحك بشكل غير معتاد وينطق مرارا باسم الرضيع الذى أكلناه، لم يكن ذلك الضحك سوى تصنع، واجهة، اكتشفت لأول مرة أن سيدى يمكن أن ينتابه الخوف إلى درجة يفقد فيها هدوءه.

بعد ذلك الثلاثاء الذى ذهب سيدى فيه شاكيا إلى بابا مونجولا، باتت حياته تتخللها مآسٍ صغيرة، بل إنه فى ذلك اليوم نفسه، فى حدود منتصف الليل، تناهى إلى سمعه صوت رضيع يبكى خلف ورشته، سمع أيضًا قهقهات صبية وجريا جنونيًا وقفزات فى الوادى، سمع ضجيج طيور تحطّ على سقف كوخه، لم يغمض له جفن، بقى صاحيًا حتى الفجر، ولم يقرر وضع حدّ للمهزلة إلى صبيحة الغد، ولأول مرة، وهو ما فاجأنى مفاجأة مذهلة، نادانى فى رابعة النهار، أدركت أنه فقد رشده، فليس من عادة المسارّ أن يدعو مثيله المضرّ فى وضح النهار ليشرح له مهمته، ولكنى لا أملك عصيانه، غادرت مخبئى إذن، دون أن أشعر بالهمة التى كانت تجمح بقوائمى فى الفترة التى كانت الأمور تجرى خلالها كما نتوقّع، المسألة الآن تتعلق بأمر عاجل، حتى هذه اللحظة لم نهاجم سوى الأحياء، ولم يحدث أن واجهنا أطياف الليل، كما لم يحدث أن عاد كائن أكلناه كى يحاسبنا. عندما بلغت مسكن كيباندى دفعت الباب برجلى، وبقيت مسمّرا فى مدخله، كانت المفاجأة مذهلة، رأيت إنسانا مضطرب الذهن قضى ليلته فى شرب المايَمْقومْبى، كانت قسمات وجهه ذابلة كأنه لم يذق طعمًا للنوم منذ ليلتين أو ثلاث

ليال، قرأت الخوف فى نظراته السامدة، دعانى إلى الدخول، نظر إلىّ وتمتم بكلام لا يفهم، وأنا أقول فى نفسى إننا سنغادر قرية سيكيبَمْبى ونتبع مصير عائلته فى الترحال المتواصل بحثًا عن موطن آخر، ولكنه حدّثنى عن التوأمين، كانت فكرة ثابتة لديه، قال إن ذينك الطفلين أقوى مما كان يتصور، وإننا سنسوى أمرهما يوم الجمعة على أقصى تقدير، أضاف أنى لا بدّ أن أبقى بجانبه، وخصوصًا ألا أعود إلى الغابة قبل هذه المهمة التى يحرص عليها أكثر من حرصه على المهمات التسع والتسعين السابقة، قضيت اليوم إذن فى ركن مظلم داخل كوخه فيما كان هو مستلقيًا على السرير بلا حراك، لم يعد التوأمان فى تلك الليلة لإزعاج راحة سيدى فى حضورى، ولم يكن ذلك إلا هدأة خادعة، ففى يوم الجمعة، حوالى العاشرة ليلا، وبينما كنا على أهبة الذهاب إلى المكان المتاخم لمسكن مونجولا، أفزعنا صوتُ طيور الليل وقد اهتاجت على سقف الكوخ، وريح عنيفة خلّعت بابه، والورشة القديمة وقد تحطّمت شظايا، أبهرنا ضوء كأن النهار طلع فجأة فى عزّ الليل، وأبصرنا فى الفناء وليد يولا، الرضيع الذى أكلناه، بدا فى صحة جيدة، وهو يشير إلينا بإصبعه، كان برفقة اثنين من حرس حمايته الشخصية، هما كوتى وكوتاى التوأمان وقد قبضا على هو نفسه الآخر لسيدى، كان مشهدا مؤلًما، كأن هو نفسه الآخر فقدَ حتى القدرة التى تُعزى إلى الفزّاعات المغروزة فى الحقول، كان مستسلما، أشبه بمهرج أو بهلوان أو دمية محشوة بالقطن والإسفنج، والولدان الخبيثان يتقاذفانه كما يهويان، ويمرّغانه فى التراب، ثم يحاولان إيقافه فترتخى رجلاه ويقع أرضًا على صدره، فيما تتمطط ذراعاه حتى ركبتيه، كان الطفلان يقهقهان، صاح فىّ

سيدى "ارمِ، ارمِ أشواكك، ارمها، ويحك"، ولكن أشواكى، للأسف الشديد، لم تتحرك، فقد شلّت تلك الرؤيا حركتى، عندئذ ترك التوأمان هو نفسه الآخر لسيدى طريح الأرض، واقتربا منّا حتى بلغا عند مستوى وليد يولا، لاحظت أنهما تغيرا، تحولا تمامًا كأن لم يكونا ذينك الآدميين الصغيرين اللذين طاردانى فى المقبرة، تقهقر كيباندى، وأسرعنا إلى الكوخ نلوذ به، سمعناهما يَقدمان مثل قطيع بألف ثور تهزّ أقدامها الأرض، وجعلا يرجّان واجهات الكوخ ثم دخلا، انطويت فى زاوية ضيقة، فيما جرى كيباندى إلى غرفته، رأيته يغادرها حاملاً رمحًا، تلوّى التوأمان والرضيع من شدة الضحك وهم يشيرون إلى السلاح، وقف سيدى فى وضع استعداد وحاول قذف الرمح، ولكن يديه ثقلتا بشكل أوقع الرمح عند قدميه، فانقض عليه أحد التوأمين وأمسكه من رجله اليسرى فيما أمسك التوأم الآخر بالرجل اليمنى وسحباه كلٌّ من جهته تحت قهقهة الرضيع قدام المدخل، رأيت كيباندى ينهار على الأرض مثل شجرة هرمة قطعت بضربة واحدة، ولا أدرى ماذا فعل به الجنيان الصغيران بعد ذلك، فقد أغمضت عينىّ تحت وطأة الخوف، سمعت ما يشبه طلقة، طلقة نارية، رغم عدم وجود سلاح نارىّ فى الكوخ، ورغم عدم إشهار التوأمين لأى سلاح، كنت أرتجف كالغرّير، وزال الضوء المعشى الذى ظهر مع قدوم تلك الكائنات كمثل السحر، وهبط علينا الليل فجأة بحركة من اليد اليمنى رفعها الرضيع إلى السماء، وبحركة أخرى من يده اليسرى أعاد ذلك الضوء المعشى كأنه صار يتحكم فى ظواهر الطبيعة، كنت أرى من مخبئى ساقيه الصغيرتين الملطّختين بالوحل، ولما جعل يوجه نظرته الحارقة ناحيتى، أدركت أنه اهتدى إلىّ وأنه لن يعفو عنى، بدأ يصعقنى

شيئًا فشيئًا بنظرته ولسان حاله يقول إنى انتهيت كما انتهى سيدى المضطجع بلا حياة خارج الكوخ، عندئذ بدأت أختلج، وفجأة حوّل الرضيع عنّى نظره فقدّرت أنه لا يرغب فى مهاجمتى بنفسه، وأنه سيأمر التوأمين كى يسلّطا علىّ ما سلّطاه على سيدى من عقوبة، ولكن لا، كل ما فى الأمر أنه حينما التفت إلىّ من جديد، أومأ إلىّ برأسه يدعونى إلى الفرار، لم أصدّق، ولكنى لم أتردد فى التسلل خلسة عبر غرفة سيدى، سمعته يطلق شهقة طويلة، سكرة النزع الأخير، كانت تلك آخر دقيقة له على وجه الأرض، أما أنا فقد مضيت أعدو كامل الليل كالمطارد .

الوقت متأخر، عزيزى الباوباب، والقمر غاب منذ حين، أحس أن جفونى تثقل وأعضائى ترتخى ورؤيتى تغيم، لا أدرى أهى أذرع الموت تمتد نحوى، فأنا ما عدت قادرًا على الصمود وقتا أطول، ما عدت قادرا أن أثبت، أنا أستسلم، لقد نعست، نعم، نعست.

كيف لم أصبح بعد شيهماً منتهياً

طلع النهار منذ حين، تفاجأت بأنى ألاحظ الحياة من حولى، الطيور وهى تعود لتحطّ على أغصان الشجر، الوادى وهو يسيل بصخب أكبر، وهى حركة تطمئننى على أية حال، إنه نصر جديد إذن، ولا بد أن آخذه كما هو، لم أكد أرى الوقت يمضى منذ يوم أمس، اكتفيت بالحديث إليك حتى ثقلت جفونى، دون أن تقاطعنى ولو لحظة، ودون أن أعرف رأيك فى هذه الحكاية، حسنا، مهما كان الأمر، يمازجنى ارتياح لأنى تمكنت من إفشاء اعترافاتى، ربما ثمة أشياء لم أقلها لك، اسمى مثلا، الاسم الذى أطلقه علىّ سيدى، كان يدعونى نْغومبا، ومعناه فى لهجة هذه الجهة شيهم، كيباندى أيضًا كان مقتنعًا بأنى لست سوى شيهم، شيهم عادى، هذه مسألة بدَهيّة، فقد كان آدميًا، وبما أنى لم أكن أحب هذا الاسم ذا الرنين الصوتى المزعج(*)، أتظاهر بأنى لم أسمعه حين ينادينى به، مما يجعله يلحّ فى النداء، أفهمت الآن لماذا لم أشأ أن تعرف هذا الاسم فى البداية.

منذ قليل، وأنا أتمطّى، عثرت على زاد خلف منبت جذعك، وهو أمر بدا لى غريبًا، أتساءل هل يوجد هنا مقيم آخر، رغم أنى لم

(*) وهو فعلاً كذلك بالفرنسية «بور كيبيك». (المترجم).

ألمح مرور أى حيوان منذ أمس، منطقيًا هذا الزاد صار من نصيبى، لا أستطيع أن أتخيل أن هو نفسه الآخر لسيدى وضعها هنا، وإلا كنت سمعت مجيئه كما فى تلك الفترة التى كان يتبدى فيها، هو أيضا اختفى يوم تقاذفه ذانك الوحشان الصغيران مثل دمية متحركة.

لا أندم إلا على شىء واحد، وهو أنى لا أسمع صوتك، عزيزى الباوباب، فلو كنت تتكلم مثلى لتناقص شعورى بالوحدة، ولكن ما يهم فى هذا الطور هو حضورك، إنه يجعلنى أقل قلقًا، ولو رأيت الخطر محدقًا فسيكون بوسعى أن ألوذ بأحد تجويفاتك، أنت لا يمكن أن تسلّمنى إلى الموت، أليس كذلك، أعتذر مسبّقًا لفكّ حصرى هنا، فأنا ما زلت خائفًا من أن أبتعد وأرتكب حماقة أخرى فأندم على تفريطى فى حمايتك، أنا لا أدرى كم وقتًا ستدوم حالة التأهب والحذر هذه، أعرف أنك لا ترضى أن أتبرّز عند جذعك، ولو أن البشر يقولون إن الفضلات هى التى تخصب النباتات، إذن أنا أساهم فى إطالة عمرك فى وجه من الوجوه، هذا كل ما يمكن أن أهبك إياه مقابل ضيافتك.

فى الواقع، لكم جهدت فى المحاولة ولكن ليس لى شهية، ورغم ذلك يجب أن آكل، كل جوز النخل الكرنبى لم يعد له طعم الأيام الخوالى، ما فتئت أخضه، أتطلع إليه، أشمه، أحاول أن أحشر بعضه بين شدقىّ، فأجده مُرّا لا طاقة لى على مضغه، أعرف أن ذلك ناجم عن الاضطراب والرهبة اللذين تملّكانى فى الأيام الأخيرة، لا بدّ أن أسترخى وأستريح، إذ يتعذر الأكل إذا كان القلب شديد الخفقان، أحس أنى راغب فى الأكل كى تطمئن نفسى، وربما كى لا أموت من شدة الجوع، وزنى فى ما أظن قلّ منذ يوم الجمعة

الماضى، ولسانى دبقٌ، ذنَبى منكّس، عيناى حمراوان، أطرافى الأربعة واهنة، وعندما أسعل، لأنى لا أسعل كثيرا فى الساعات الأخيرة، أحس أنى سأتقيّأ رئتىّ، لا يهمّ ما دمت لا أحسّ أى خواء فى البطن، وإذا كان لا بدّ من الموت، فليأت الموت على الأقل نتيجة الجوع.

فى هذا الاثنين المشمس، أود أن أتخذ قرارات بعيدة المدى، أن أنظر إلى المستقبل بتفاؤل، أن أسخر من الغد، أسمع صوتًا بداخلى يهمس لى أنى لن أموت اليوم، ولا غدًا، ولا بعد غد، لا شكّ أن لذلك تفسيرًا ليس من شأنى أن أبحث عنه، مَن خلق الكون يدرك دون ريب أنى لم أكن سوى ضحية تقاليد أهالى هذا البلد، ونجاتى سوف تكون عندئذ ازدراء من كل من يريدون فى مستقبل الأيام نقل مثيل مضر إلى أبنائهم، كم وقتا سأعيش الآن، هه، لست أدرى، عزيزى الباوباب، "كلّ يوم يكفيه همّه" كان يمكن لسائسنا العجوز أن يقول، سائسنا الذى طبع سلوكى، فى الحقيقة أنا معجب به، يصادف أحيانا أن أقول فى نفسى إنى مشتاق إلى ذلك العجوز الحرد، لكم أودّ لو أسمعه يحدثنا مرة أخرى، يقدم لنا درسًا من دروسه الأسرة كما هو الشأن فى ذلك اليوم الذى حدثنا خلاله عن المادّة وحالاتها الثلاث الأشدّ تداولاً وتغيّرها، يومئذ تحدّث عن **المائعية والغازية وحالة الصلابة**، لم يفته أننا وقفنا منه موقف شك، فقد طلبنا منه أن يسوق لنا أمثلة محسوسة، جعل يشرح لنا بطريقته **الصّهر والتسامى**[1] **والتميع والتبخير**[2]، يا للعجوز

---

(١) تكرير مادة صلبة بتسخينها ثم بتكثيف البخار المتصاعد منها. (المترجم).

(٢) تحول سائل إلى بخار. (المترجم).

المسكين، كان شيهما بأتم معنى الكلمة، تماماً مثل رفاق جيلى، هذا أمر مؤكّد.

لم أطلب النجاة، ولم أطلب الموت أيضا، حسبى أن أتنفس، أن أنظر فى ما أنا فاعل من عمل مفيد فى المستقبل، ولى فى ذلك مسلكان أريد اتباعهما، أولا، أريد أن أشنّ حربا بلا هوادة عل المثُل المضرّة فى هذه الجهة، أعرف أنها حرب كبرى، ولكنى أريد مطاردتهم الواحد تلو الآخر، كوسيلة للتكفير عن ذنوبى ومحو نصيبى من المسئولية فى المآسى التى ألبسَت هذه القرية وقرى كثيرة أخرى ثوب الحِداد، المسلك الثانى الذى أفكر فيه سهل، عزيزى الباوباب، وهو أنى أريد العودة للعيش فى أرضنا القديمة، لأن معاشرة البشر ولّدت لدىّ حنينا، أصفه بالشوق إلى الأرض، هم يتحدثون عن الشوق إلى البلاد، صرت حريصًا على ذكرياتى حرص الفيل على نابيه، هى صورى البعيدة، الأطياف التى زالت، الأصوات النائية التى تمنعنى من اقتراف المحظور، أجل، المحظور، فكرت فى ذلك أيضا، أن أنتحر، ولكن ذلك هو أبغض الجبن، وبما أن البشر يعتبرون أن وجودهم مستمَدّ من كائن أعلى، آمنت بذلك بدورى منذ الجمعة الماضى، فإذا كنت مازلت على قيد الحياة حتى الآن، وحق الشيهم، فلأن إرادة فوقى قررت ذلك، وما دام قد تقرر فمعناه أن لى قطعا مهمة أخيرة لا بدّ لى من أدائها.

Twitter: @alqareah

لى مشاريع أخرى تعبر ذهنى، عزيزى الباوباب، أريد مثلا أن ألتقى بأنثى من طينة جيدة، ليس لمجرد الجماع بهدف الإنجاب كسائر الحيوانات الأخرى، بل للذة أولا، لذة رفيقتى ولذتى، وبعد ذلك طبعًا لكى تنجب لى صغارا إذا ساد التفاهم بيننا، وحينما أصبح أبًا، سوف أروى لذريتى حياة البشر وأخلاقهم، وأحذرها من مصير يشبه مصيرى، قد تعتبرنى أخرق، عزيزى الباوباب، طموحا وخصوصا غير واقعى حينما تعلم أن عمرى اثنتان وأربعون سنة، ثم إن السنّ، وحق الشيهم، لا يخيفنى، لقد قرأت فى كتاب الرّب الضخم أن البشر قديما كانوا يعيشون قرونًا وقرونًا كاملة، وبطريركهم الذى يسمونه **مَتوشالح**(*) عاش ٩٦٩ عاما، أى أنى لست شيهما منتهيًا، أود أن أكون مَتوشالح الجنس الحيوانى، فما زال لى جلَد وخفة، المهم أن أتوصّل إلى تخصيص الوقت الذى يتبقى لى لفعل الخير، ولا شىء غير الخير، كأن أتحول ربما إلى مثيل مسالم.

نعم، ما زال لى من الجلَد ما يكفى، وأنا على يقين من أن قدراتى لا تزال سليمة، آه، أراك تحرّك أغصانك كأنك تضع كلامى موضع

(*) متوشالح هو جد سيدنا نوح وأطول من عمّر من بنى إسرائيل، ورد ذكره خاصة فى الإصحاح الخامس من سفر التكوين. (المترجم).

شك، أنت لا تعتقد أن لى بعض القدرات المتبقية، هه، تريد أن تشهد دليلا على ذلك بأى ثمن، هنا والآن، حسنًا، ليكن، دعنى أقف على قوائمى، دعنى أنكمش، دعنى أركّز، وباف، وباف، وباف مرة أخرى، وحق الشيهم، أرأيت كيف قذفت ثلاثا من أشواكى، هه، لقد وقعت على بعد عدة مئات من الأمتار، أبعد مما كانت تبلغه حينما كنت فى خدمة سيدى، أى دليل آخر تريد كى تفهم أن الحديث عنى لم ينته بعد، هه.

ملحق

رسالة من الحلزون العنيد حول مصدر
مخطوط مذكرات شيهم

من السيد **الحلزون العنيد**

منفذ الوصية الأدبية لـ"كوب مكسور"

صاحب حانة "الدّين سافر"

إلى منشورات سوى(*)

٢٧ نهج جاكوب

٧٥٠٠٦ باريس - فرنسا

الموضوع : إرسال مخطوط **مذكرات شيهم**، نص لصديقى " كوب مكسور" بعد وفاته

سيدتى، سيدى:

أكتب إليكم بوصفى منفذ الوصية الأدبية لصديقى الدائم، المرحوم " كوب مسكور" . أود أن يقع نشر هذه الرسالة فى نهاية كتابه مذكرات شيهم بغية تقديم إيضاحات أكثر للقراء حول مصادر هذا النص.

صحيح أن العام الماضى، بعد وفاته مباشرة، أرسلت إليكم عن

(*) العنوان السابق لمنشورات سُويُ. (المترجم).

طريق البريد مضمون الوصول ما كنت أعتقد أنه المخطوط الوحيد، لأنى أنا الذى طلب منه ذلك لتخليد حانتى **الدَّين سافر**. هذا النص الأول، نشرتموه بعد أشهر قليلة تحت عنوان **كوب مكسور** وإن كنت أملت صراحة أن تحمل الرواية عنوان **الدَّيْن سافر**. وقد رأيتم – فى ما يبدو أنه من مصلحة الكتاب – عدم الالتزام به...

وأيًّا ما يكن الأمر، لا أكتب إليكم لتغذية الجدل حول الموضوع، بالعكس، أنا سعيد جدا بأن أوجه لكم هذا المخطوط الآخر الذى عثر عليه أحد عملتى، النادل مومْبيرو، قرب وادى تشينوكا حيث انتُشلت من الماء جثة المغفور له " كوب مكسور". المخطوط الأصلى – حاوى ملفات مدرسى قديم بأوراق منفصلة – كان فى حال من التلف استدعت منا احتياطًا كبيرًا لتجميع الصفحات، وترتيبها قبل ترقيمها. لتحقيق ذلك، كنا، حين لا يكون فى الحانة زبائن كثر، ننكب عليه نحن الثلاثة، أنا والنادلان، حول طاولة كان يشغلها فى العادة المغفور له " كوب مكسور"، فنقوم بفكّ المقاطع التى محتها الأغبرة والمطر والندى، ونقارن فى كل مرة وجهات النظر فى ما بيننا حتى لا نسند إلى المرحوم ما لم يكتبه. نقاشنا، أعترف لكم بذلك، كان حادًا، حاميًا، وهو ما كان يثير سخط زبائنى. بعضهم، مثل **الشخص ذى البامبرس والروبينات**، لا يزالون ينكرون مشاهد معينة كنا عزوناها لهم فى رواية **كوب مكسور**، ومن ثَمّ، لم يتقبلوا بارتياح نبأ اكتشاف كراس ثان، معتقدين اعتقادًا خاطئًا أن **مذكرات شيهم** ليست سوى تتمّة لـ كوب مكسور ! وهم فى الواقع يخشون أن يتناولهم مرة أخرى ذلك الذى يواصلون نعته بخائن من النوع الدنىء سرق منهم جانبًا من حياتهم قبل أن يلتحق بأمه فى المياه الرمادية لوادى تشينوكا...

ولكن لنعد إلى المخطوط الجديد !

بعد الانتهاء من عملية إعادة التشكيل الشاقة، أوكلت شخصيًا رقن مذكرات شيهم إلى طالبة فى المعهد التقنى كنجى- بولين. حدّدت ثمن الصفحة، استعدوا جيدا، بألفى فرنك م ف إ(*)، أى ما يعادل ثمن زجاجة نبيذ أحمر جيد فى حانتى ! لتعليل هذا الثمن المرتفع لورقة مرقونة، قالت إن كتابة المرحوم " كوب مكسور" عسيرة القراءة، وكانت البنت المسكينة تضطر أحيانًا إلى إعادة قراءة السطر الواحد مرتين أو ثلاث مرات، كل ذلك بسبب إصرار المؤلف على الفاصلة علامةً وحيدة للتنقيط.

هذه الأحداث المزعجة إذن هى التى منعتنى، سيدتى، سيدى، من إمدادكم بالمخطوط قبل هذا الوقت، وينتابنى أخيرا شعور بالراحة وأنا أسلمكم إياه مرفقا بالوثيقة الأصلية حتى يمكنكم، إذا اقتضى الأمر ذلك، التثبت من بعض التشكّلات الجديدة، خصوصًا فى القسمين الأخيرين اللذين يحملان عنوانىْ " كيف صار يوم الجمعة الماضى يوم نحس" و" كيف لم أصبح بعد شيهمًا منتهيًا". هذان القسمان كانا أكثر الأقسام تلفًا...

فى هذا النص، يختفى "كوب مكسور" فلم يعد ساردا دائم الحضور ولا شخصية من شخصيات الحكاية. فى الواقع، كان مقتنعًا بأن الكتب التى ترافقنا طويلاً هى تلك التى تعيد خلق العالم، وتستعيد طفولتنا، وتساءل البدء، وتسبر أفكارنا الثابتة وترجّ معتقداتنا. ونتيجة لذلك، وهو يضع بين أيدينا هذه الوقائع التى

(*) الأحرف الأولي لفرنك المستعمرات الفرنسية بإفريقيا، العملة المتداولة فى دول الساحل الإفريقي التى كانت خاضعة للاستعمار الفرنسي.(المترجم).

▪ الهوامش كلّها من وضع المترجم.

جعل عنوانها مذكرات شيهم - وأتمنى من كل قلبى ألا تغيروا عنوان الكتاب هذه المرة -، دوّن " كوب مكسور" إذن بأسلوب مجازى رغباته الأخيرة. العالم بالنسبة إليه ليس سوى رواية تقريبية لخرافة لن نفهمها أبدًا ما دمنا لا نرى إلا التشخيص المادى للأشياء.

لا أستطيع أن أكبح نفسى عن البوح لكم بانسياقى مع مصير هذا الشيهم الغريب، الذى هو فى الآن نفسه جذاب، ثرثار، مضطرب، عليم بالطبع البشرى، يستعمل الاستطراد سلاحًا حدّ النهاية ليصورنا، نحن الآدميين، وفى بعض الأحيان يلومنا بلا هوادة. ومنذ ذلك الوقت، لم أعد أنظر إلى الحيوانات بالعيون نفسها. وبعد، مَن منا الوحش فعلاً، الإنسان أم الحيوان؟ سؤال رحيب !

وإنى، إذ أعبر لكم عن سعادتى بتعاوننا مجددًا، أرجو أن تثقوا، سيدتى، سيدى، بصدق مشاعرى تجاهكم.

الحلزون العنيد

منفذ الوصية الأدبية لـ "**كوب مكسور**".

صاحب حانة "**الديْن سافر**".

المترجم

أبوبكر العيادي كاتب ومترجم من تونس متفرغ للكتابة، ولد عام ١٩٤٩ في جندوبة. ويقيم بباريس. كتب الرواية والقصة والدراسة وأدب الطفل واليافعين ووضع كتبًا بالفرنسية مستوحاة من التراث القصصي العربي والحكايات الشعبية التونسية، ونقل إلي العربية عدة أعمال من الأدب العالمي.

من مؤلفاته:

في القصة: دهاليز الزمن الممتد (جائزة القصة لعام ١٩٨٦)، حكاية شعلة، حقائب الترحال، الضفة الأخري.

في الرواية: آخر الرعية، الرجل العاري (الجائزة التقديرية لعام ٢٠٠٩)، زمن الدنّوس.

في الترجمة: أمراض الأدب القاتلة (دراسات)، يوم آخر من أيامنا (قصص من أمريكا اللاتينية)، المحطة الصغيرة (قصص عالمية)، بدور بارَمو (رواية للمكسيكي خوان رولفو)، الحمامة (رواية للألماني باتريك زوسكيند)، مذكرات شيهم (رواية للكنغولي آلان مابَنْكو).

صدر من هذه السلسلة

1 ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

2 ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسي «بيير بيجى».. رواية.. جائزة إنتير.

3 ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصري «خيري شلبي» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

4 ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصري «محمد عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

5 ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

6 ـ «عاشوا في حياتي».. للكاتب المصري «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

7 ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصري «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

8 ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفوق.

9 ـ «العاشقات».. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

10 ـ «نوّة الكرم».. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

11– «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالي «إيتالو كالڤينو».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة فياريچيو.

12– «القلعة البيضاء».. للكاتب التركي «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

13 – «أين تذهب طيور المحيط».. للكاتب المصري «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

14 ـ «قرية ظالمة».. للكاتب المصري «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

15 ـ «الرجل البطيء».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كوتسى».. رواية .. جائزة نوبل.

16 ـ «طحالب».. للكاتبة الجنوب إفريقية «ماري واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

17 ـ «شوشا».. للكاتب البولندي «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

18 – «شارع ميجل».. للكاتب من تريندا د «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

19 ـ «الحياة الجديدة».. للكاتب التركي «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

20 ـ «عشر مســرحيات مختــارة».. للكاتب الإنجـليزي «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

21 ـ «الآخر مثـلي».. للكـاتب البرتـغالي «جوزيه ســاراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

22 ـ «المستبعدون».. للكـاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية.. جائزة نوبل.

23 ـ «الأنثى كنوع».. للكـتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.

24 ـ «ثلاثة أيام عند أمي».. للكاتب الفرنسي «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

25 ـ «إسطـنبول.. الذكريـات والمدينة».. للـكاتب التركي «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

26 ـ «الـطـوف الحـجــري».. لـلـكـاتب الـبـرتـغـالي «جـوزيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.

27 ـ «نـار وريـبة».. لـلـكـاتبـة الألمانـية «بـريـچـيـتّه كـروناور».. مختارات..جائزة چورچ بوشنر الكبرى.

28 ـ «الذكـريـات الصـغـيـرة».. لـلـكـاتب الـبـرتـغـالي «جوزيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

29 ـ «إليزابيث كُستّلّو».. للكاتب الجنوب إفريقي «ج. م. كوتسي» .. رواية.. جائزة نوبل.

30 ـ «السيدة ميلاني والسيدة مارتا والسيدة جيرترود».. للكاتبة الألمانـية «بـريجـيته كـروناور» .. قـصص.. جائـزة چورج بوشنر الكبرى.

31 ـ «حين تقطعت الأوصال».. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

32 – «مارتش».. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس».. رواية.. جائزة البوليتزر.

33 – «اغتنم الفرصة».. للكاتب الكندي «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل.

34 – «البصيرة».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

35 – «بريك لين».. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا علي».. رواية.. جائزة البوكر.

36 – «بريد بغداد».. للكاتب التشيلي «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

37 – «عن الجمال».. للكاتبة البريطانية «زادي سميث».. رواية.. جائزة الأورانج.

38 – «العار».. للكاتب الجنوب إفريقي «ج. م. كوتسي».. رواية.. جائزة نوبل.

39 – «قبلات سينمائية».. للكاتب الفرنسي «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

40 ـ «هكذا كانت الوحدة».. للكاتب الإسباني «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

41 ـ «الشلالات».. للكاتبة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

42 ـ «العشب يغني».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

43 ـ «العالم».. للكاتب الإسباني «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

44 ـ «ميراث الخسارة».. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. رواية.. جائزة البوكر.

45 ـ «الطفل الخامس».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

46 ـ «بن يجوب العالم».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

47 ـ «ثورة الأرض».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

48 ـ «ملك أفغانستان لم يزوجنا».. للكاتبة الفرنسية «إنجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.

49 ـ «الكهف».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

50 ـ «يوميات عام سيئ».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسي».. رواية.. جائزة نوبل.

51 ـ «كازانوفا».. للكاتب الإنجليزي «أندرو ميللر».. رواية.

52 ـ «انقطاعات الموت».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

53 ـ «العم الصغير».. للكاتب الألماني «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب المنفى.

54 ـ «اللعب مع النمر».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

55 ـ «في أرضٍ على الحـدود».. للكاتب الألماني «شـيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

56 ـ «الإرهـابية الطيبـة».. للكاتبة الإنجـليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

57 ـ «المسـرحيات الكـبرى» جـ1.. للـكاتب الإنجـليزي «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

58 ـ «المسـرحيات الكـبرى» جـ 2.. للكاتب الإنجـليزي «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

59 ـ «نصف شمس صفـراء».. للكاتبـة النيجـيرية «تشـيماماندا نجوزي آديتشي .. رواية..جائزة الأورنج.

60 ـ مـذكرات چـين سومرز «مـذكرات جـارة طيـبة».. لـلكـاتبة الإنـجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

61 ـ مذكـرات چين سـومرز «إن العـجوز اسـتطاعـت».. للكـاتبة الإنـجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

62 ـ «الحـوت».. لـلـكاتب الـفـرنـسي «جان مـاري جـوسـتاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

63 ـ «رقة الذئاب».. للكاتبة الأسـكتلندية «ستيف بيني».. رواية.. جائزة كوستا.

64 ـ «رحـلة العم مآ».. لـلكاتب الجابـوني «چان ديڤاسـا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

65 ـ «مـسيرة الفـيل».. للكاتب الـبرتغالي «جـوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

66 ـ «كرسي الـنسر».. للكـاتب المكسيكي «كـارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

67 ـ «داي».. للـكاتبة الأسكتلنـدية «أ. ل. كيندي».. رواية.. جائزة كوستا.

68 ـ «الحب المـدمـر».. لـلـكـاتب الأمـريـكى الـكـندي «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

69 ـ «أين نذهب يابابا»؟.. للكاتب الفرنسي «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

70 ـ «نداء ديـنيتى».. لـلكاتـب الجابوني «جـان ديڤاسـا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

71 ـ «صخب المـيراث».. للكاتب الجـابونى «جان ديڤـاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

72 ـ «المؤتـمر الأخيـر».. للـكاتب الفـرنسـي «مـارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

73 ـ «كـتـاب الـرسم والخط».. لـلـكـاتب الـبـرتـغالـي «جوزيه سـاراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

74 ـ «كلُّ رجل».. للكاتب الأمريكي «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

75 ـ «نُريد أن نتـحدث عن كيڤـين».. للكاتـبة الأمريكيـة «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورنلج.

76 ـ «ألم فذ».. للكاتب الإنجليزى «أنـدرو ميللر».. رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

77 ـ «أناقة القنفذ».. للكاتبة الفرنسية «موريل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

78 ـ «حزن مـدرسـي».. للكـاتب الفـرنسى «دانيل بـناك» رواية.. جائزة روندو.

79 ـ «غدًا».. للكاتب الألماني «فالتر، كاباخر».. رواية.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

80 ـ «الكلمة المكسورة».. للكاتب الإنجليزي «آدم فولدز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.

81 ـ «أن نُصبح أغرابًا».. للكاتبة الإنجليزية «لويز دين».. رواية.. جائزة بيتي تراسك.

82 ـ «المرأة المسكونة».. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلي».. رواية.. جائزة كاسا دي لاس أمير كاس.

83 ـ «بيتر كامينتسند».. للكاتب الألماني «هِرْمَنْ هيسِّه».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة نوبل.

84 ـ «بيت السيد بيسواس».. للكاتب من ترينداد «ڤ. س . نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

85 ـ «مدريد الأصيلة».. للكاتب الإسباني «كارلوس أرنيتشيس».. مسرح.. وسام الاستحقاق.

86 ـ «لاڤينيا».. للكاتبة الأمريكية «أوروسولا كي لي جوين».. رواية.. جائزة ديمون نايت التذكارية الكبرى.

87 ـ «أشجار متحجرة».. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

88 ـ «سنوات الهروب».. للكاتب الكولومبي «بلينيو أبوليو ميندوثا».. رواية.. جائزة بلازا إي خانيس.

89 ـ «الباحث عن الذهب».. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

90 ـ «جائزة أو. هنرى».. مجموعة من المؤلفين.. قصص قصيرة.. القصص الفائزة بجائزة أو. هنري لـ عام 2007.

91 ـ «الحيوان المُحتضر».. للكاتب الأمريكي «فيليب روث».. رواية.. جائزة بن /نابوكوف.

92 ـ «أنشودة ألاباما».. للكاتب الفرنسي «جيل لوروا».. رواية.. جائزة الجونكور.

93 ـ «إنجيل الابن».. للكاتب الأمريكي «نورمان ميللر».. رواية.. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

94 ـ «الوصمة البشرية».. للكاتب الأمريكي «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

95 ـ «ليتني لم أقابل نفسى اليوم».. للروائية الألمانية «هيرتا موللر».. رواية.. جائزة نوبل.

96 ـ «حكاية أوزوالد جـ1».. للكاتب الأمريكي «نورمان ميلر».. لغز أمريكي.. الكتاب الأول. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

97 ـ «حكاية أوزوالد جـ2».. للكاتب الأمريكي «نورمان ميلر».. لغز أمريكي.. الكتاب الثاني. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

98 ـ «وبنى لها معبدًا».. للكاتب الألماني «سيجفريد أوبرماير.. رواية.. جائزة شيلزهايم.

99 ـ «جنون المتاهة».. للكاتب الإنجليزي «آدم فولذر».. رواية..جائزة صنداي تايمز لكاتب شاب.

100 ـ «الملك ينحني ليقتل».. للكاتبة الألمانية «هيرتا موللر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

101 ـ «العبد».. للكاتب البولندي «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية.. جائزة نوبل.

102 ـ «الفراشة والدبابة».. للكاتب الأمريكي «إرنست همنجواي».. قصص.. جائزة نوبل.

103 ـ «التجمع».. للكاتبــة الأيرلندية «آن إنرايت».. رواية.. جائزة البوكر.

104 ـ «مونــدو».. للكاتب الـفرنسي «ج.م.ج لوكـليزيو» قصص.. جائزة نوبل .

105 ـ «الكون فى راحة اليـد».. للكاتبة النيكاراجوية «جيـــوكوندا بيلي».. رواية.. جائزة اتحاد الناشرين.

106 ـ «جـزيرة صـغـيرة».. للـكاتبــة الإنجليـزية «أندريـا ليفى».. رواية.. جائزة الأورنج .

107 ـ «حيـاتي».. للكاتـبة الأمريكيــة «إيزادورا دونكان».. سـيـرة ذاتية.. جائزة الكتاب القومى .

108 ـ «تيـو».. للكاتبة الـنيوزيلندية «بــاتريشـيا جريس».. روايـة.. جائزة ميدالية ديوتيز للرواية.. وجائزة مونتانا للرواية.

109 ـ «الجولة وحوادث مؤثـرة أخرى».. للكاتب الفرنسـي «ج. م. ج لوكليزيو».. قصص.. جائزة نوبل.

110 ـ«ذهـول ورعدة».. لـلكـاتبة الـفرنــسيــة «إميـلي نوتومب».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

111 ـ «أوليف كيتريدج».. للكاتبة الأمريكية «إليزابيث ستراويت».. رواية.. جائزة البوليتزر.

112 ـ «زهـرة الكـركـديه الأرجوانـيــة».. للـكاتـبـة النـيـجيـرية «تشــيماماندا نجوزي آديتشـــي».. رواية.. جائزة الـكومنولث لأفضل كتاب أول.

113 ـ «ثمةُ ما أقولُ لكُم».. للكاتب البريطاني من أصول باكستانية «حنيف قريشي».. رواية.. جائزة بن بنتر للأدب.

114 ـ «قلبٌ ناصعُ البياض».. للكاتب الإسباني «خابير ماریاس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب (تشيلى).

115 ـ «كتاب الزنوج».. للكاتب الكندي «لورانس هيل».. رواية.. جائزة الكومنولث للكتاب.

116 ـ «ملك كاهل».. للكاتب الفرنسي «تيرنو مونينمبو».. رواية.. جائزة رينودو.

117 ـ «البينيلوبية».. للكاتبة الكندية «مارجريت أتوود».. رواية.. وسام الفنون والآداب الفرنسي 1994.

118 ـ «ڤوس».. للكاتب الأسترالي «باتريك وايت».. رواية.. جائزة نوبل.

119 ـ «هناك حيث النمور في أوطانها» جـ1.. للكاتب الفرنسي «جان ـ ماري بلاس دو روبليس».. رواية.. جائزة ميديسيس.

120 ـ «هناك حيث النمور في أوطانها» جـ2.. للكاتب الفرنسي «جان ـ ماري بلاس دو روبليس».. رواية .. جائزة ميديسيس.

121 ـ «الناقوس الزجاجى».. للكاتبة الأمريكية «سيلڤيا بلاث».. رواية.. جائزة البوليتزر.

122 ـ «لاحواء ولا آدم» .. للكاتبة الفرنسية «إميلي نوتومب».. رواية.. جائزة دى فلور.

123 ـ «ذكريات تراني».. للكاتب السويدي «توماس ترانسترومر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

124 ـ «التصحيحات».. للكاتب الأمريكي «چوناثان فرانزن» رواية.. جائزة الكتاب الوطنية الأمريكية.

125 ـ «أعداء» (قـصـة حب).. للكاتب البولـنـدي «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية جائزة نوبل.

126 ـ «زجاج مكـسـور».. للـكـاتب من الكـونغو «آلان مـابانكو».. رواية.. الجائزة الدولية الفرنكفونية.

127 ـ «الإحسـاس بالنهاية».. للكاتب الإنجليزي «چوليان بارنز».. جائزة البوكر الدولية.

128 ـ «رُبَّ جملة بعشرة آلاف جملة».. للكاتب الصيني «ليو تجن يون».. رواية.. جائزة ماودون.

129 ـ «حـبُّ الغربان».. للـكـاتب الألماني «فافر تـسـينيك».. رواية.. جائزة إنچبورچ باخمان.

130 ـ الصبي سارق الفجل.. لـلـكاتب الصيني «مو يان».. رواية.. جائزة نوبل للآداب.

131 ـ الـصـائد صفر.. للـكـاتبة الفرنـسـية «باسكال روز».. رواية.. جائزة الجونكور.

132 ـ رحَّـالـة القرن.. لـلـكاتـب الأرجنتـينى «أندريس نـيومان».. رواية.. جائزة الفاجوارا.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ العاري والميت.. نورمان ميللر.. جائزة الكتاب الوطني 2005.

٢ـ جيران العالم.. يانيس ريتسوس.. جائزة نيو ستاد الدولية للأدب عام 1984.

٣ـ رجلٌ لايكفُ عن المرح وقصص أخرى.. مو يان.. جائزة نوبل للآداب عام 2012

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الكاتب

آلان مابانكو، كاتبٌ من الكونغو.

- ولد آلان مابانكو عام 1966 في برازافيل.
- يقيم في الولايات المتحدة حيث يُدرّس الأدب الفرنكفوني في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس.
- كتب الشعر والرواية والقصة القصيرة والدراسة.
- من أعماله الشعرية: "أسطورة التيه"، "الأشجار أيضًا تذرف الدمع"، "حين يعلن الديك عن فجر يوم جديد". ومن أعماله الروائية: "الأزرق الأبيض الأحمر"، و"جنازة أمي"، و"أحفاد فيرسين جيتوريكس"، و"الأفريقي المختل العقل"، و"مذكرات شيهم"، و"البازار الأسود"، و"زجاج مكسور" و "غدًا سأكون في العشرين من عمري".
- حاز العديد من الجوائز، من أهمها: جائزة "جان كريستوف" من جمعية الشعراء الفرنسيين، الجائزة الأدبية الكبرى لأفريقيا السوداء، جائزة "جورج براسانس"، وسام جوقة الشرف من الرئيس الفرنسي "نيكولا ساركوزي" وقد حازت الرواية التي بين أيدي القارئ الكريم "زجاج مكسور" على الجائزة الدولية الفرنكفونية عام 2005

الجائزة

جائزة رينودو

من الجوائز الأدبية الفرنسية رفيعة المستوى، وهى واحدة من الجوائز الفرنسية الخمس الكبرى، شرع عددٌ من نقاد الأدب والصحفيين فى تأسيسها عام 1925، وذلك لتعلن قبيل الإعلان عن الجائزة الشهيرة "الجونكور"، وأطلقوا عليها اسم "تيوفراست رينودو" وهو أول من أسس جريدة فرنسية فى عصر لويس الثالث عشر عام 1631.
وقد أثبتت جائزة "رينودو" جدارتها بعد أكثر من نصف القرن، وحازها أهم كتّاب فرنسا وكذلك الكتاب الفرانكفونيون ابتداء من أولى دوراتها عام 1926 التى حصل عليها "أرماند لونيل"وحتى آخر دوراتها.



الرواية

بطل هذه الرواية "شيهمٌ" يروي لشجرة باوباب معمرة مغامراته، بوصفه قرينًا لرجلٍ يُدعى "كيباندي"، كان يستعمله للتخلص من خصومه وأعدائه وكل مَنْ لا يروقه، قبل أن يلقى نحبه على يدي طفلين توءمين.

يروى الشيهمُ دون توقفٍ (ليس في الرواية من علامات ترقيم سوى الفواصل) وهو لا يصدق أنه نجا من الموت، فالمفروض أن يلقى القرين نحبه بموت سيده، يروى بلسان البشر وينتقد عاداتهم وتقاليدهم، ويمنى النفس بحياة حرة لا يكون فيها الحيوان ـ بشكل عام ـ ضحية لطباع الإنسان السيئة ومزاجه المتقلب.

رواية "مذكرات شيهم" هى خرافة ذات منحى فلسفي حول علاقة الإنسان بالحيوان، ومعنى الحياة، وما وراء الوجود، تمتح من الحكايات والأساطير الشعبية الإفريقية التي نهل منها الكاتب في طفولته، وتمنح الحيوان الكلمة لكي يحاكم سلوك البشر.

الروائي: آلان مابانكو، كاتبٌ من الكونغو.
الجائزة: جائزة رينودو الفرنسية عام 2006.



تصميم الغلاف: د. هند سمير


ISBN# 9789774488937
6 221149 038042

١٣ جنيهاً